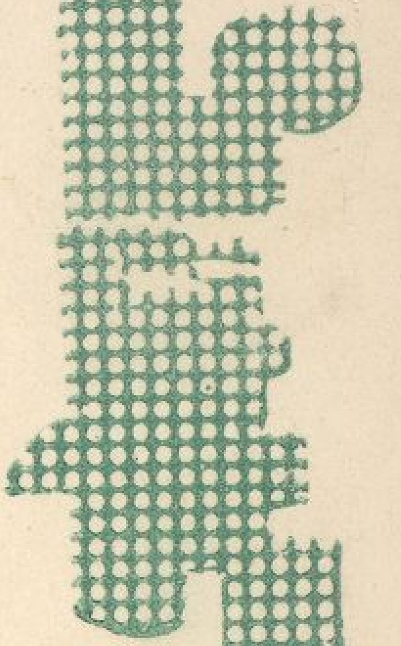


أمين الخولى



«أذن للذين يقاتلون،
بأنهم ظلموا»

«يأيها الذين آمنوا
ادخلوا فى السلم كافة»

الجندية والسلم

واقع ومثال

دار المعرفة



أمين الخولي

الجندية والسلم
واقع ومثال

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة»

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»

١٩٦٠



دار المعرفة
١٥ شارع محمد صبري أبو علم بالقاهرة

الطبعة الأولى

اكتوبر ١٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم



الأسطول العربى على شواطىء أوربا أمام أوستيا — ميناء روما

بين يدى التاريخ

— ١ —

قيل أمس : « القتل أنفى للقتل ! » وتوشك أن تكون كلمة الساعة : « الحرب أنفى للحرب ! » . . فحين بلغت أسلحة الحرب أقصى المدى فى الإبادة، قوى الأمل فى محاربة الحرب !. وحين علت الأصوات بالدعوة لنزع السلاح ؛ قال الذى يرشح نفسه لسياسة الغد : ينبغى أن نكون أقوياء لنصل إلى نتيجة فى نزع السلاح !.

ولعل ذلك لا يبعد القول بأن مذهب القرآن فى القوة كان الواقع الذى يخطو نحو مثال من السلم . . فهو يعد له ويمهد . . فى عمر البشرية الطويل جداً .

وهذا الكتاب حديث عن واقع الجندية فى تاريخنا أمس ، مع تطلع إلى مثال السلم فى مستقبلنا غداً .

— ٢ —

و « كتاب الجندية والسلم » قطعة من تاريخ الفكر ، فى حياة الجيل الماضى ، بما هو انعكاس لاتجاهات الجماعة على فرد منها ، وتفاعل من هذا الفرد مع الجماعة التى يحيا فيها ، وبها . .

وهذا الكتاب فى الوقت نفسه وثيقة تطور عقلى واجتماعى ، يصور فيه الفرد الجمع ، ويوجه فيه الجمع والفرد . . وهذه قصة ذلك التطور ، فى حياة ذلك الكتاب بقسميه .

واجه الجيل السابق الحياة ، والدعوة إلى الشعور بالذات ترتفع ، فبدأت ، وبدأ يشعر بنفسه فى ظل مجد آبائه ، وعظمة أسلافه ، بالحديث عن الحضارة الاسلامية ، والحضارة المصرية حيناً . واستجابة لهذه الدعوة ألفت للمسرح قصتين ، مثلت إحداها ؛ وهى تصور تأثير الحضارة العربية على أوروبا ، من طريق إسبانيا .

وأعدت الثانية للتمثيل ؛ وهى تصور تأثير الحضارة العربية على أوروبا ، من طريق بغداد ، بمثل صلة الرشيد بشارلمان .

ومن الاستجابة لهذه الدعوة نفسها اخترت موضوع رسالتى الدراسية : «الجندية فى الاسلام »وكان ذلك سنة ١٩١٧ ، والدنيا تصلى بنار الحرب الكبرى الأولى ، فقلت فى تقديم هذه الرسالة ما نصه :

وبعد ، فقد ذكرنى ماعليه العالم اليوم من التطاحن فى هذه الحرب الوبيئة — مع شغف لى بتاريخ فروع الحضارة الاسلامية — أن أجعل موضوع رسالتى « الجندية الاسلامية ونظمها » مقابلة للمصريين ، وذكرى لمجد آباء سلفوا ، ففعلت راجياً من الله عوناً وتأييداً ، إنه أكرم مسئول ، والسلام »

١٩١٧ م أمين ابراهيم الخولى

— ٣ —

ومضى أكثر من عشرين عاما . . وصار الشعور بالذات اعتدادا ، يبتغى فى الحياة مكاناً . . فاتخذت هذه الرسالة وسيلة لعمل قوى فعال . . وتقدم الصديق الكريم المجاهد الحر ، المرحوم الأستاذ محمد عبد الصمد ، صاحب مدارس رقى المعارف بشبرا ؛ يريد ليحول صرير القلم فى الحديث عن الجندية أزيز طائرة حربية فى سماء الحرية القوية . . فقبل تصميما لطبع تاريخ الجندية أساسه إخراج آلاف من نسخها تكون أثمانها الاعتبارية ، على قدر ما يقدم من أجل مصر المفداة . . وبمجموع هذه الأثمان التى يجب أن تبلغ ثمن طائرة ، تقدم تلك الطائرة هدية لمصر المسلحة . . وبدأت هذه الطبعة وفى صدرها :

مقدمة

بقلم اللواء عزيز على المصرى (باشا)

المفتش العام للجيش المصرى

نظرت فى كثير من ثنايا هذا السفر القيم ، فوجدته ظاهرة جديدة فى الحياة الفكرية والروحية فى مصر ، تدل على تحول وتصاعد للأمام فى طريق الحقيقة ، وتدل أيضا على أن الكلام قد أدى ماعليه من استنهاض النفوس ، وأن النفوس بدأت تشعر أن دور العمل والتضحية قد اقترب ، وأن بوادر هذه الحياة الجديدة المنشودة أخذت تظهر .

وإنى أرى الأستاذ أمين الخولى ، فى سفره هذا ، كشف لنا عن طلائع حركة قوية جديدة ، واتجاه جديد ، لا يكون بدونه استقلال ، ولا تكون حرية . . وإنى وأنا أطالع هذا الكتاب أشعر بتفاؤل واستبشار بالمستقبل ، وبدنو جيل جديد ، يختلف عن الجيل الماضى الذى كان جيل كلام ، فما ينتج عن الكلام من مباحثات ، ومناقشات ، فتفرقة ، فضعف .

ولقد ألف الأستاذ كتابه هذا فى أعقاب الحرب العالمية ، وفى فجر الثورة المصرية ، ومن حسن الحظ أنه أخفاه منذ ذلك الوقت ، وإلا لكان احترق فى لهيب ألسنتها . . وها هو يظهره فى الوقت المناسب الذى بدأ يشيع فيه إحساس عام بتعرف روح الكفاح الصحيح ، والعمل على إغاثها فى النفوس .

وأنا أقدم إعجابى للأستاذ المؤلف ، وأصافحه شاكراً ، فهو أول فاتح فى هذا العهد الجديد ، وهل كان ينتظر إلا من جامعى أن يفتتح عصر العمل ، وأسأل الله أن يكثر فى الميدان هذا النوع من العاملين ، وأن يجعل الحركة الجامعية طليعة النهوض الكامل فى أتم معناه ، وأوسع مراميه ؟

عزيز على المصرى

وقد قلت فى فاتحة تلك الطبعة بعد الكلمة التى كتبت سنة ١٩١٧م مانصه :

هكذا قال صاحب هذه الأسطر ، منذ أكثر من عشرين عاما ، وقال حين وقف ببحثه هذا عند القرن العاشر الهجرى ، وأغفل ماعداه : « ... فلندع تاريخ هذه العصور إلى أن تحليها نهضة يخف بجانبها ذكر تلك الأيام » . ومصر قد صح اليوم عزمها ، على أن تبعث فى نهضة الشرق جداً حازماً ، وجولة باطشة .

فإلى مصر المسلحة ، أقدم فى إكبار وإجلال هذا الحديث عن ماض مجيد ، من خير مايؤسس عليه المستقبل الطامح .

إلى مصر الباسلة أرفع هذه الأثارة ، فى تاريخ الجندية : البرية والبحرية ، وقد آثرت أن أدعها كما كتبت لذلك العهد البعيد ؛ صورة للحياة العلمية فيه ، وحفزاً للهمم أن توالى البحث تكملة لذلك ، وعناية به .

وأسأل الله ، والعزمات ، أن تكون تلك النهضة هى التى تغطى ما فى عصورنا الأخيرة ، وتضع إلى جانب ماضينا الكريم ، أنخر حاضر ، وأشرف عهد م؟

١٩٣٨ م أمين

* * *

وتطاول الوقت فى إعداد المشروع وضمان نجاحه ، فى تقديم الطائرة المطلوبة ، وأنفق فى ذلك ما يتولى الله جزاء منفقه الصديق المرحوم محمد عبد الصمد ، ويحسن مثوبته عليه .

وأدركته الحرب الكبرى الثانية سنة ١٩٣٩م ، ووقف المشروع بعد طبع ملزمة واحدة من تاريخ الجندية .

وكان اعتداد الجيل الماضى . . طموحا . . إلى المشاركة فى دفع سير الحياة ، وشعوراً بحاجتها إلى التطلع الجاد ، نحو آفاق خيرة سامية ، فإذا أحاديث الإذاعة ، من أخلاق القرآن . . ثم من هدى القرآن ، تعنى بهذا الواجب ، وتشعر أن فى ماضينا ، وثروتنا ما يهدى إلى البشرية الطامحة ، فيصحح الفكرة ، ويسدد الخطى .

وكان أول حديث من هذه الأحاديث فى يوليو سنة ١٩٣٧م عن « السلام » . . وتلته

تلك الأحاديث التي تشكل القسم الثانى من كتاب الجندية والسلم .

وتمر الأيام . . . فإذا الطموح إقدام ومشاركة فى رسالة الحياة . . . وتقدم الجيل الجديد الذى رباه الجيل الماضى ... يسهم ، ويشارك فى طموح الإنسانية للسلم . . . وإذا بنا نرى حولنا، فى غير مكان ، أولئك الجنود المحاربين يصنعون السلم ، ويشعروننا أن القوة هى وسيلة تحقيق الأمل فى نزع السلاح !

وفى ظل هذا الشعور يقدم اليوم كتاب « الجندية والسلم » واقع ومثال ... يحدث عن تجربة فى الحياة .. ويجهر بدعوة للسلم ، لو أمعنت النظر فيها لكدت ترى داعيها لا يلفت لشىء سواها ؟

أمين الخولى

مصر الجديدة ١٩٦٠/٧/٣٠

البحث

اقسامه وحدوده

قد أردنا بعون الله تأريخ الجندية الإسلامية ونظامها ؛ على أن نجر البحث إلى عهد الدولة العثمانية ، ونقف عند أواخر القرن العاشر الهجرى لنرى دولة السيف في حالة عجزها وتقهقرها ، وعربيتها وعجمتها . ونمر في طريقنا بهذه الفترات التى كانت صحائف بيضاء ، خلال غبرة العصور المظلمة ، كدفاع الشرق للصليبيين ، وأوائل الفتح العثمانى الكبير إلى امتداده .

ولقد أرخ جورجى بك زيدان الجندية الإسلامية فى كتابه « تاريخ التمدن الإسلامى » ولكنه كتب لا عن عصر محدد ، ولا أمة سماها ، فتراه يذكر الشيء من محاسن النظم العسكرية ، ويقارنه بالنظام الحاضر ، ولا يرشدك عن صاحب هذا النظام ومبدعه ، ولا عن الدولة التى كان قائدها أو معاصرها ، فبينا تحسبه قد قصر بحثه على النهضة الأولى ، إبان الفتح الأعظم ، إذا به يلقاك بحديث عن المماليك في مصر أو الفاطمية أو العثمانية ، وترى للرومان واليونان والفرس القسم الأوفر مما كتب ، يريد المقابلة بينهم وبين العرب ، ولكنه لم يأت العرب بشيء ذى غناء ، ففى كتابه صورة المنجنيق الرومانى ، والجند الرومان يديرونه ، وليس للعرب فيه مثل هذه الصورة ولا الشرح ، على حين ترى فى كتاب « الأنيق فى المجانيق » مئات من الصور ؛ كان من فخر التصوير والتاريخ أن تنشر ويعنى بها مؤرخ « التمدن الإسلامى » وإنى مع حدى له سبقه أفر من هذا الاختلاط لأقدم للقارىء صورة صحيحة متسقة لدولة السيف فى الإسلام ، فأقسم تاريخ الجندية إلى ثلاثة أقسام وعصور :

١ — العصر العربي الناهض :

يبتدىء في حياة الرسول عليه السلام ، وينتهي في أوائل القرن الثالث الهجري. بدأ والدين غامض ، والدولة شابة فتية ، والأمة ناهضة ترقى معارج الحياة السامية ، وفيه نمت الفتوح ، وتقررت قواعد الدولة ، ومهدت السيادة للإسلام والعرب ، ثم شاركه النفوذ الفارسي حين أدال الله للعباسية ؛ لـكن ظل النفوذ العربي يعلو الروح الفارسية لفضل قوة نفوس الخلفاء . فالقواد من العرب في عهد العباسية كانوا لا يزالون ممدوحي الشعراء ، وذوي وجاهة ونفوذ لدى الخلفاء ، فلما قتل الأمين كانت الغلبة للفرس على العرب ، ثم كانت العجمة الطاغية .

٢ — العصر الأعجمي المظلم :

يبتدىء من أوائل القرن الثالث الهجري وتنجر الدولة في الهبوط والانحطاط إلى انقسام الممالك الإسلامية ، وسقوط العباسية في بغداد أواسط القرن السابع الهجري . وفيه استقلت الأطراف ، وسادت أمم كانت مسودة ، وأسست دول كثيرة بعضها لم يعش نصف قرن كامل ، وبعضها طالت مدته إلى الثلاثة القرون . لـكن الشعب العربي لم تقم له في تلك السوق قائمة ، وإن أحييت الآداب والعلوم العربية ، فإنما كانت خدمة للدين لا للأمة والدولة .

ولو حاولنا تأريخ الجندية في هذه الدول لتـكلفنا من أمرنا شططاً ، لأن أعمارهم قصيرة ، والمعالم طامسة ، والأخبار قليلة ؛ فنخص بحثنا أيام قيام العباسية التي بقيت فيها الدولة إثر السيادة ماضية ؛ وإنا نذكر في الحقيقة من غلبوا على الخلافة وتصرفوا في أمر الدولة كالبويهية والسلجوقية ، ونتبع ذلك بما يستطاع من أخبار الدولة المعاصرة .

٣ — عصر الحياة في الأطراف :

وهو — أيدك الله — يساوق العصر الثاني وبداخله ، بحيث ضعفت الحـكومة

المركزية حيث أعضاء من جسم الدولة ، أثر فيها موقعها واحتكاكها بالأمم المجاورة وحاجة الأمة إلى ركن شديد تلوذ به ، ونؤرخ من هذا العصر جندية الدول التي اشتركت في الحروب الصليبية ، ثم جندية الدولة العثمانية إلى عصر عظمتها أيام سليمان ، إلى مختتم القرن العاشر الهجري ·

وليس من شأننا في هذه العصور الحديثة ، مما بعد ذلك الذي حددناه ، بل نترك ذلك لقرب العهد به والصلة ، وكثرة المراجع · دع عنك أنه لم يكن لنا فيه مجد حربي يذكر ، وما هي إلا مقاومة لتلك القارة الظالم أهلها ، بعد انقباضها على أثر الحروب الصليبية وتحرشها بالشرق والإسلام ممدنيها ·

تلك الحدود التي قررت تظهر جلية في نظم الجندية حيث نجعلها قالب البحث ، ومنهج القول ، حفظا لوحدة السياق وتناسق الحديث،فلنبدأ في الكلام على البرية ، مستعينين بحول الله وقوته ، وحسن توفيقه .

البـريـة

التجنيد

موارد الرجال – الإلزام والتطوع

« الجهاد فرض كفاية إذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقين ، إلا أن يكون النفير عاما فيفرض عينا ، والمخاطبون بالفرضية من عدا الصبي والعبد والمرأة والأعمى والمقعد »[1] .هذا حكم الشريعة الاسلامية عن الجهاد فلنر ما كان من الأمة الاسلامية في ذلك .

كان المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلة من المدد معروفين وجها لوجه فكان كل من يطيق القتال منهم جنديا ينفر لدعوة الرسول وذلك من عدا ذي العذر الذي نفى الله عنه الحرج في قوله : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج . . » الآية، فكان المهاجرون والأنصار جميعاً جندا يخرجون للقتال ثم يعودون إلى مكانهم من الزراعة والتجارة ، والتجنيد إلزامي فعلى المتخلف أن يستأذن الرسول مبديا عذره وإلا كان متخلفا ، وقد عوقب المتخلفون بادىء الأمر بالفضيحة والتشهير والتشنيع كما أصاب المتخلفين عن الحديبية الذين قص الله خبرهم في سورة الفتح في قوله «سيقول لك المخلفون من الأعراب...» الآية والآيات بعدها ، وحرمهم من غنيمة خيبر كما جاء في قوله تعالى « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم .. » الآية . واشتدت العقوبة حين كثر المسلمون فعوقب المتخلفون عن تبوك (عام تسع من الهجرة) حين علم أنهم لم يتخلفوا لعذر ولا حاجة ، بسخط الرسول عليه السلام ، ونهى الناس عن كلامهم فاجتنبوهم ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة حتى كان الرجل منهم يخرج فيشهد الصلاة في مسجد الرسول فإذا التفت نحوه أعرض عنه ويطوف بالأسواق فلا يكلمه أحد حتى أحب الناس إليهم[2] ثم أمروا بعد مضي أربعين ليلة من الخمسين أن يعتزلوا نساءهم ولا يقربوهن

---

(١) الهداية : ج ٤ ص ١١٥ طبع الخشاب سنة ١٣٢٦

(٢) تفسير الخطيب الشربيني : ج ١ ص ٦٢١

« حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم » وما أشبه هذه العقوبة بذلك « الموت المدنى » الذى كان يعاقب به الفرنسيون فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع ، بل تكاد تكون أشد وآلم .

ثم امتد الاسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجا وكانت الفتوح على عهد أبى بكر وعمر فكان المسلمون يخرجون إلى القتال ابتغاء مرضاة الله ومن خرج منهم أسهم له فى الغنيمة . ولو قلنا إن التجنيد إلزامى أو اختيارى لم نصب فالقوم تحدوهم الرغبة . وذوو السابقة منهم لن يتخلفوا ، وإن فعلوا قيد الخليفة فوقهم ؛ لكنهم كانوا يتطوعون راغبين فكان الأمر أدنى إلى الاختيار منه إلى الالزام ، لاسيما أن الجند لم يتميزوا حتى الآن عن سواد الأمة ولم ينفصلوا ، فلما وضع عمر رضى الله عنه الديوان وقرر العطاء للقوم على قرابتهم من رسول الله ثم على السابقة أوشك أن يكون التجنيد إلزامياً فكل ذى عطاء لابد خارج إلى القتال حين يأمر الخليفة بذلك لأنه أعد نفسه لكفاية المسلمين هذه الفريضة، فبدأ الجند يمتازون عن سائر الأمة، وأمر عمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية أن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائر فلا يزرعون[1] . وذلك لئلا يتوطنوا فيشق عليهم الخروج عن بلد حين يدعون إلى غيره ، ولكى تبقى الأرض مورداً لمؤن الجيش ولا يحتكرها الجند فيصيبها الخراب كما كان بعد ذلك حين أقطعت أيام البويهية .

والنظرة العجلى فى سيرة الفتوح منذ الصدر الأول إلى أيام الأموية لاتتبين يداً أعجمية فى الجند الإسلامى إلاّ بدء العباسية ، ولكننا نرى فى ثنايا الأخبار أن قد بدأ أثر الأعاجم فى الرأى منذ عهد النبوة كما كان من أمر سلمان والخندق وما كان من مشورة الهرمزان على عمر فى تدوين الدواوين، بل اتخذ القوم جندا من غير العرب فعلا. فإنه لما هزم حسان بن النعمان الكاهنة التى كانت تملك بلاد البربر فى عهد عبد الملك ابن مروان شرط على البربر أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو فأجابوه إلى ذلك فجعل على هذا العسكر ابنى الكاهنة وكانا قد استأمنا إليه[2] . وليس لنا سبيل إلى اتصال العلم بتجنيد هؤلاء البربر أو متى

(١) حسن المحاضرة للسيوطى : ج ١ ص ٧٦ طبع الموسوعات سنة ١٣٢١

(٢) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٤٤ طبع مصر ١٣٠٣ .

انقطع ، ولكنه يكفينا هذا للقول بوجود الأعاجم فى الجند الإسلامى أيام الأمويين، فلما كانت العباسية ودعاتها وشيعتها الفرس كان الخراسانيون طائفة من الجند تساير المضرية واليمنية .

واتسعت تجارة الرقيق بامتداد العمران فملئت القصور جوارى وغلمانا، فلما بدأ العرب يتذمرون من خلفائهم استراب الخلفاء بهم فاتخذوا الحرس من غير العرب وأفرطوا فى ذلك حتى كانوا جنوداً ، وأسقط المعتصم العرب من الديوان واصطنع قوما من أهل الحوف بمصر « الشرقية والدقهلية الآن » سماهم المغاربة، وجمع خلقا من أشروسنة وسمرقند وفرغانة وجند منهم جنداً أسماهم الفراغنة ثم سموا الأتراك، واصطنع القدمون منهم بنى جنسهم فاتصل ذلك التجنيد الأجنبى ومورده تجارة الرقيق.

ولا نستطيع أن ندعو هذا تجنيداً إلزاميا ولا إجباريا ، وإنما هو استئجار لقوم اتخذوا القتال حرفة للارتزاق لا يبغون نصرة دين ولا دولة ، ولذا كانت لهم الشناعات التى ملأت صحائف تاريخ العباسـية فى انحدارها ، فولوا وعزلوا وقتلوا وسملوا وأذلوا متأخرى الخلفاء ومهدوا لخروج الأمر من أيديهم إلى البويهية ثم السلجوقية حتى كانت غارة التتر فانهار ذلك العرش الواهى .

وكانت فى الأطراف دول عاصرت العباسية المريضـة وأخرى قامت بعدها شغلت ما دعوناه عصر الحياة فى الأطراف، وكان أجلى ما يظهر فى جندية هذه الدول الاستئجار لأولئك المحترفين مهنة الحرب للارتزاق من مختلف العناصر والأقطار. فكان يعقوب بن الليث الصفار بالمشرق « ٢٥٣ — ٢٦٥ هـ » يأتيه الراغب فى خدمته، المؤثر للانقطاع إليه فيتفرس فيه فإذا أعجبه منظره امتحن خبره واستبرأ ماعنده من رمى أو طعان أو غير ذلك من ثقافة، فاذا رأى منه مايعجبه سأل عن خبره وحاله ومن أين أقبل ومع من كان ، فإذا وافقه ماسمعه منه قال : اصدقنى عما معك من المال والمتاع والسلاح فيقف على جميع ما معه ثم يبعث أناسا قد رتبوا لذلك فيبيعون جميع ذلك ويجعلونه عينا أو ورقا ويدفع إليه ويثبت فى الديوان فيزيح علله فى اللباس والسلاح والمأكل والمشرب والدواب والركائب من اصطبله حتى

لايفقد الرجل شيئاً مما يحتاج إليه على قدر مكانه ورتبته[١] .

وكان أولئك المستأجرون من صنوف وألوان مختلفة تؤلف جيشاً واحداً فكان فى جند العزيز الفاطمى عصر المماليك الديالمة والمصامدة والأتراك المغل[٢] وكانت عساكر الحاكم بأمر الله ما بين ترك وديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود وغير ذلك[٣] وحادث يسير من أحد الخدم يقدمه فى الجيش والحرس فيستكثر من جنسه .

أثر التسرى فى الجيش :

وكان للتسرى عمله فى الجيش كما كان فى إدارة الدولة فكل حظية غدت أم خليفة تسعى لتستكثر من جنسها ليؤيدها وولدها ، أو حمية لجنسها وإعزازاً كما فعلت أم المستنصر الفاطمى وكانت جارية سوداء . واتفق أن جرد بعض الأتراك سيفاً وهو سكران على أحد عبيد الشراء فاجتمع عليه كثير من العبيد وقتلوه فحنق لقتله الأتراك وساروا إلى المستنصر فتبرأ مما جرى وأنكره فتجمع الأتراك لمحاربة العبيد وكانت حروب شديدة قتل فيها عدة من العبيد وانهزم الباقون فشق ذلك على أم المستنصر وأحبت الاستكثار من جنسها فاشترتهم من كل مكان ، وعُرفت رغبتها فى هذا الجنس فجلبه الناس إلى مصر حتى يقال إنه صار فى مصر إذ ذاك زيادة على (٥٠,٠٠٠) خمسين ألفاً من العبيد السود ، وكانت أم المستنصر قد تحكمت فى الدولة وحقدت على الأتراك وحثت على قتلهم فقويت العبيد السود لذلك حتى صار الواحد منهم يحكم بما يختار[٤] .

وإن كانت للقائم بالدولة عصبية جنسية استكثر من قومه كما فعل

---

(١) مروج الذهب للمسعودى على هامش ابن الاثير طبع مصر سنة ١٣٠٣ هـ : ج ١٠ ص ٨ .
(٢) تاريخ ابن إياس : ج ١ ص ٤٨ طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ
(٣) المصدر نفسه : ج ١ ص ٥٧ سنة ١٣٢٤ هـ
(٤) خطط المقريزى : ج ٢ ص ١٣٨ طبع النيل سنة ١٣٢٤ هـ

صلاح الدين الأيوبى فقد تم له الأمر بمصر وجندها صقالبة ومصامدة وأرمن وشنارة العرب والعبيد السود ، فمحا تلك الطوائف واتخذ عساكر من الأكراد خاصة بلغت عدتهم (١٢,٠٠٠) فارس من شجعانهم[١] .

وهكذا كانت الحال فى بغداد والقاهرة وسمرقند وغزنة وقرطبة ، لم يختلف فى ذلك شرق عن غرب ، فهذه دولة الأندلس لم يكن للعرب يد فى جيشها إلا أيام الولاة على عهد الأموية بالمشرق ، فلما جاءها عبد الرحمن الداخل انصرف عن العرب إلى البربر خوفاً على نفسه منهم فاستصنعهم وأكثر فوفدوا عليه ، ثم جاء الحكم بن هشام (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) فاتخذ المماليك وجعلهم فى المرتزقة فبلغت عدتهم (٥٠٠٠) خمسة آلاف مملوك كانوا يسمون الخرس لعجمتهم[٢] . ثم كثر الصقالبة فى القصر والجيش وكان لهم الشأن حتى فتك بهم المنصور بن أبى عامر فتكته المشهورة واستكثر من البربر ثانياً وهكذا كانت أعراض العجمة فى الشرق والغرب واحدة .

وكانت للبربر دول بالمشرق دعى إليها باسم الدين فعادت روح التطوع الأولى وبذل القوم أرواحهم والمهج ، لما عرف عنهم من الانقياد لمثل ذلك ، والتصديق وسرعة التأثر ، ولكن كان عماد التجنيد فيما بعد الاستئجار والاستعانة بالأجانب .

الإفرنج جنود فى الجيش الإسلامى :

بل كان فى جيوش دول المغرب إبان القرن الثامن الهجرى عنصر غريب ناء عن الأمة والدين والدولة ، وهو العنصر الإفرنجى كانوا يتخذونه عند قتال أمم العرب والبربر على الطاعة ، إذ كانت طريقتهم فى القتال الكر والفر (وسيأتى شرحهما) وهذا يتأكد معه ضرب المصاف (وسيبين بعد) ولا بد أن يكون أهله ممن تعود القتال بالصف والثبات فى الزحف ، والإفرنج لا يعرفون غير ذلك

(١) ابن اياس ج : ١ ص ٧٠ .
(٢) ابن الأثير : ج ٦ ص ١٢٨ ط مصر سنة ١٣٠٣ هـ .

إذ كانت عادتهم فى القتال الزحف فاتخذ منهم ملوك البربر جنداً ورتبوا مصافهم المحدق بهم منه لئلا يجفلوا على طريقة أهل الكر والفر فينهزم السلطان والعساكر بإجفالهم(١) وهذا أغرب العناصر الأجنبية فى الجيش الإسلامى،وناهيك بها من استعانة بعدو ظاهر العداء .

ولكنا سنرى تجنيد المسيحيين فى ألوان مختلفة منذ أواخر القرن السابع الهجرى فإن المماليك بمصر والشام حيث لا عصبية لهم من جنس ولا دعوة دين لجأوا إلى المورد الفياض مورد الرقيق فجلب لهم التجار صغار المماليك من غرب آسيا وصحراء ققجق وغيرها،واتصلت تلك التجارة فى أيامهم وعنوا بتربية أولئك الجلب وتدريبهم (كما سنفصله) ، ولكن الظاهر بيبرس جند غلمان النصارى بالشام عقابا لهم ، إذ توجه إلى دمشق سنة ٦٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من الغزو فنزل بلداً اسمه « قارا» بين دمشق وحمص ، فأمر بنهب أهلها النصارى وقتل كبارهم ، لأنهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سراً للصليبيين وأخذ صبيانهم فرباهم بين الأتراك فى الديار المصرية،فنشأوا على الإسلام وكانوا جنداً له(٢) .

ولقد سبق الظاهر بذلك « أورخان العثمانى » (٧٢٦ — ٧٦١ هـ) فانه لما رأى جيش الدولة من قبائل البدو ذوى الاقطاع ينفرون للحرب ثم يعودون إلى سوادهم ، ومثل هذا الجيش لا يسلم من انتشار روح العصبية فيه ، ولا يغنى غناء جيش مدرب تحت السلاح فأشار عليه (قارا خليل) أحد المقدمين فى دولته أن يأخذ الغلمان من أسرى الحرب ويفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وأن يربيهم تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد ، وقال بعض المؤرخين إنه جعل الغلمان ضريبة النصارى ، ويقول المؤرخ الإنجليزى «ورتشارد لدج » فى كتابه تاريخ أوروبا الحديث ، إنه استعمل الأمرين معاً ، وليس من شأننا البحث فى ترجيح أحد الآراء ، فلذلك

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ طبع عبد الرحمن محمد

(٢) مجلة الهلال : المجلد ١٤ ص ٢٦٣ والمجلد ١٧ ص ٤٥٨

مكانه من تاريخ العثمانيين ، وإنا نقول سواء أكان هذا أم ذاك فقد سار لدى السلطان منهم عدد ليس بالقليل،سار بهم إلى الحاج « بكطاش » شيخ طريقة البكطاشية « بأماسية » ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ، ويرسم بالتركية هكذا « يكيچارى » ثم عرف فى العربية فصار « انكشارى »[1] وارتقى هذا الجيش الذى يعد بحق أول الجيوش المنظمة فى العصور الحديثة فكان عماد الدولة العثمانية فى فتوحها التى بلغت مداها أيام سليمان الأفخم ، وكانت لذلك الجيش نظم ومحاسن سنأتى على ذكرها فى ثنايا البحث عند مناسبتها .

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية لمحمد بك فريد : ص ٤٢ طبعة ثانية مصر سنة ١٣١٤ هـ

تدريب الجنود

تألف أول جيش للمسلمين من رجال البادية الذين دربهم الخلاء ، وعلمتهم الفطرة وحياة التنازع والتقاتل ، فقد كانت المعيشة فى تلك الصحارى تتطلب قوة وفتوة ، وحدة بصر ونفاذ نظر فى الرماية والطعان ، والأب فى ذلك أستاذ الإبن وحاجة الحياة معلم الكل ومرنهم ؛ ثم كانت الدولة والفتوح وبسطة الملك والسلطان ، ووفرة الغنائم ، فاتصلت الرغبة فى حمل السيف والجندية . والكبير يدرب الصغير ، والشجاعة روح عامة ،وفنون القتال أمور أولية للنشء الصغار . والمسلمون جنود ، ورجال وغى أولا . ثم أمراء وساسة وعلماء ورواة وفقهاء بعد ذلك .

ثم دونت الدواوين ووضع العطاء فلم يثبت بين الأجناد إلا :

١ — بالغ لأن الصبى من جملة الذرارى والأتباع جارياً فى عطائهم .

٢ — أن يكون ذا إقدام على الحروب ومعرفة بالقتال فإن ضعفت مُنته على الإقدام أو قلت معرفته بالقتال لم يجز إثباته لأنه مرصد لما هو عاجز عنه[1] .

فلم تكن الحكومة تعانى إذ ذاك تمريناً ولا تدريباً ، وما كان فى جملة فنون القتال ولا أدوات الجنود وسلاحهم ما يتطلب مرانه ورياضته ، فقد لا تخلو من تلك الأسلحة دار ؛ شأن الأمة الناهضة المتحمسة .

وظل ذلك حال الجند طوال المدة التى كان « قوام الجندية فيها العرب » فى الشرق والغرب ، فلما اتخذ الغلمان حراساً ثم جنوداً كانوا يتسابقون إلى الثقافة بفنون القتال، ويتبارون فى فنون السلاح حرصاً على الحظوة لدى الخلفاء والقواد ، وطلبا للفوز على الأقران حيث الثراء الوافر ، والجاه وحمل السلطان ، وكذلك

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٩٧ ط مصر ١٣٢٨ هـ .

كانت الحال فى سائر الدول ذوات الجند المستأجرين تتخيرهم رجالا مدربين معلمين من وارد الترك والصقالبة والروم والمغـــاربة والفراغنة على اختلاف الدول شرقاً وغرباً .

وقد أراد بعض الخلفاء والأمراء أن يحفظوا على الجند فتوتهم ويمنعوهم أن يخلدوا إلى البطالة والترف ، فشغلوهم بالصيد والمسابقة على ظهور الجياد والمناضلة فى الرمى واللعب بالكرة ، وأجروا ذلك بحضرتهم فى الميادين الفسيحة كما كان فى القطائع والقاهرة على عهـد الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية وأيام الأيوبية والمماليك ، فقد بنى أحمد بن طولون « المنظر » لعرض الخيل ، وكان عرض الخيل هذا إذ ذاك من عجائب الإسلام الأربع فى ذلك العصر ، وهى : هذا العرض . ورمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، والعيد بطرطوس . وكانت حلبة السباق فى أيامهم تقوم مقام الأعياد ، لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون فى الأعياد وتطلق الخيل من غايتها فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى يتم السبق[1] وكثرت الميادين لأنواع الرياضة المختلفة من سباق ومناضلة ولعب بالكرة ، وقد ذكر بعض ما كان منها بالقاهرة المقريزى فى خططه وأفرد لها فصلا خاصاً[2] عدا ما جاء عنها فى ثنايا الكلام وهو كثير مفيد .

ولما جلب أمراء المماليك صغار الأرقاء لتجنيدهم عنوا بتعليمهم وتدريبهم فكان التاجر إذا قدم بالمملوك عرضه على السلطان فأنزله فى طبقة جنسه وسلمه لطواشى برسم الكتابة فيبدأ بتعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكان لكل طائفة فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى (أشبه بأئمة الجيش الآن) ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة العبادات ، فإذا شب الواحد منهم علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة

(١) خطط المقريزى : ج ٢ س ١١٢ ، ط المليجى سنة ١٣٢٤ هـ
(٢) المرجع نفسه : ج ٣ س ٣٢٠

معلم حتى يبلغ بهم الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه ، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رءوس النُّواب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ، ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فإن عثر أحد مؤدبيه الذى يعلمه القرآن ، أو الطواشي الذى هو مسلّم إليه ، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه[1] .

وجعلوا لهم الميادين للمسابقة والمناضلة كما كان ميدان القَبَق بالقاهرة وهو ميدان « الظاهر بيبرس البندقدارى » كان يحتفل فيه برمى النشاب ولعب الرمح وأمور الحرب ومنها رمى القبق ، والقبق عبارة عن خشبة عالية جداً تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها إلى غرض هناك تمريناً لهم على إحكام الرمى ، ويعبر عن هذا بالقبق فى لغة الترك[2] وكان الظاهر ينزل إليه ويحرض الناس خصوصاً خدامه ومماليكه على الرمى والرهان فيه ، تارة بالرماح وطوراً بالنشاب ، وآونة بالدبابيس وآنا بالسيوف مسلولة؛ يطاعن السلطان مماليكه وكل من أصاب خلع عليه (بما يشبه المناورات الآن) .

وبالغ السلاطين فى العناية بهم والتفتيش عليهم لتعرف أحوالهم ، فكانوا يستعرضونهم مطالعة لأمورهم ومبالغة فى العلم بنظمهم وعنايتهم . وذلك أيام استقامة أمرهم فلما تركوا ذلك فسدت حالهم .

وقد جاءت الدولة العثمانية عقب ذلك فكانت نهضتها على أيدى قوم من بدو الترك رفقاء السيوف وأخدان الجياد ، ولما انبسطت رقعتها احتاجوا إلى من يقاتل معهم فكان يأتيهم المتطوعة ينضمون إليهم رغبة فى الفتح أو الغنيمة

---

(١) خطط المقريزى : ج ٣ ص ٢٤٧

(٢) المصدر نفسه : ج ٣ ص ١٨٠

والفخر ، وكانوا يسمونهم « اكينجى » ، ولم يمتازوا بشىء من اللباس أو الشارة ، بل كانت ملابسهم كما اعتادوا ، إلا أنهم كانوا يتدربون على الحركات العسكرية تدريباً حسناً ، واشتهروا — على وجه خاص — بانتظامهم فى الصفوف فاذا مشوا كانت أقراسهم كالبنيان المرصوص .

ولما قضت الضرورة بإيجاد جيش مدرب ثابت تحت السلاح كونوا جيش الإنكشارية ؛ فكانوا يختارونهم من صغار السن ، لدان الأعواد ، فيمرنونهم على ترك النصرانية ، والتأدب بآداب الإسلام ، ثم يراضون على حياة العسكرية الخشنة ، وشظف عيشها ، وشاق تكاليفها ، فيؤخذون باحتمال السغب الشديد والآلام المبرحة والجوع الطويل ويمرنون بعناية على واجبات الجندية [1] .

وكانوا يعرفون قبل انتظامهم فى الجندية بالغلمان الأعاجم «عجمى أوغلانلر» فإذا نالوا قسطهم من التعلم فى المدة المعينة لذلك تقدموا للامتحان فى الحركات العسكرية فمن جاز الامتحان أدخل فى أحد (الوجاقات) . ويرجع الفضل الأكبر فى تنظيم الإنكشارية وترتيبهم إلى السلطان مراد الأول (سنة ٧٦١ هـ) فقد سنّ لهم قوانين شديدة محكمة تتلخص فى المواد الآتية :

١ — الطاعة المطلقة لقوادهم وضباطهم أو من ينوب عنهم .

٢ — تبادل الاتحاد بين سائر الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة .

٣ — التجافى عن كل ما لا يليق بالجندى الباسل من الإسراف أو الانغماس ، وأن يكون معولهم على البساطة فى كل شىء .

٤ — الإخلاص فى الانتماء إلى الحاج بكطاش من حيث الطريقة مع القيام بفروض الإسلام .

٥ — لا يقبل فى سلك الإنكشارية إلا الذين يشبون من غلمان الأسر على التربية الخاصة بين الغلمان الأعاجم .

---

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين للأستاذ حسين لبيب : ج ١ ص ١٢

٦ — الحكم عليهم بالإعدام ينفذ فيهم بشكل خاص .
٧ — يكون الترقي في المراتب حسب الأقدمية .
٨ — لا يوبخ الإنكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم .
٩ — إذا عجز أحدهم عن العمل يحال على المعاش .
١٠ — لا يجوز لهم إرسال لحاهم !!
١١ — « « أن يتزوجوا .
١٢ — « « « يبتعدوا عن ثكناتهم .
١٣ — « « « يتعاطوا عملا غير الجندية .
١٤ — يقضون أوقاتهم بالرياضية البدنية والتمرين بالحركات العسكرية .

وكانوا لا يسمحون لغير الغلمان أن يدخلوا ضمن جنود الإنكشارية ويتشدد السلاطين في ذلك ، حتى أن تاجراً أقرض السلطان « سليماً الأول » (٦٠,٠٠٠) ستين ألف ريال ، ولما أريد ردها إليه رغب التاجر إلى الدفتردار في أن يتوسط لدى السلطان في قبول ابنه ضمن جنود الانكشارية وهو يتنازل عن هذا المال للخزينة السلطانية ، فرفع الدفتردار الأمر إلى السلطان سليم فأكبر السلطان ذلك وبالغ في انتهار الدفتردار حتى قال له « وتربة أجدادي لولا خوفي من أن يقول الناس إن السلطان سليماً فاتح الحرمين الشريفين قتل تاجراً طمعاً بماله لأمرت بقتلك وقتل ذلك التاجر بهذا السيف ، ادفع النقود إلى صاحبها حالا ولا تعد إلى مثل هذه الجسارة مرة أخرى ، وكل من يتجاسر أن يدخل غريباً في جند الإنكشارية يقتل » ولذلك ظلوا حتى أواخر القرن العاشر قليلي العدد لا يتجاوزون العشرين ألفاً ولم يكن معول الدولة في الحروب عليهم بل كان الأمراء يأتون بفرق أخرى من الولايات تعرف باسم (يرلى قولى) أي الجند المحلي ، وظلوا كذلك حتى أيام مراد الثالث سنة ٩٧٦ هـ فألح السلطان في قبول الغلمان الأعاجم فصار يقبل الطالب ولو كان تاجراً أو صانعاً أو حارثاً فكان ذلك سبباً في انحطاط شأنهم[١] . وعلى ذكر تعليم الجند نذيل الحديث بكلمة في :

(١) مجلة الهلال : المجلد ١٧ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ بتصرف .

النداء (و) الشعار

النداء : تألف أول جيش للقوم ممن دربتهم الطبيعة ومرنتهم الصحراء فلم تكن لهم من النداءات إذ ذاك كلمات تواضعوا عليها وجرت مجرى الاصطلاح لكنها كلمات مختصرة وافية بالغرض يقولها القائد أو مناديه عند الحاجة إلى حركة يريدها. واللغة أفضل مساعد على هذا لما فيها من المختصرات الدالة فإذا أراد القائد الترجل للفرسان قال « الأرض الأرض » وإذا أراد الارتداد قال « الرجعة الرجعة » وهكذا ، وقد كثر فى العصر الأول أن يكون التكبير علامة على بدء القتال لما يوليه الجند من قوة معنوية ، هذا ولما اتسق الأمر واستقرت النظم وتعددت أجزاء الجنود وتنوعت الحركات جعلوا لكل حركة نداء خاصا يدل لفظه على المراد به وقد ذكر صاحب تاريخ التمدن الاسلامى[1] من تلك الكلمات « الميل • والانقلاب • والانفتال وتسوية الانفتال . استدارة صغرى . استدارة كبرى . تقاطر . اقتران.رجوع إلى الاستقبال . استدارة مطلقة . أضعاف . اتباع الميمنة . أتباع الميسرة . جيش منحرف • جيش مستقيم . جيش مدرب • رض ، تقدم • حشو • رادفة • ترتيب بعد ترتيب » فكانوا إذا أراد قائد الجند أن يميل جنده أو يتخذ شكلا خاصا من هذه الأشكال أو حركة من هذه الحركات ناداه بكلمة من هذه الكلمات .

هذا ما قاله ، ولكن لم يقع لنا ذلك فى شىء مما وصلت إليه اليد ، ولا ذكر صاحب تاريخ التمدن الاسلامى مرجعه فى نقله لنتعرف حقيقة تلك الكلمات وهل هى ضروب من التعبئة وأسماء لأجزاء الجيش أم كلمات نداء .

وقد ذكر بعد ذلك « أنهم اختصروا ذلك كله فى كلمتين « هو جوّا »

---

(١) انظر ج ١ ص ١٥٢، ١٥٣

و « هو برّا » واستعانوا على إتمام المراد بالإشارات فكان على الجند أن يراعوا الرئيس بأعينهم حتى إذا مال إلى جهة مالوا معه ، وفسروا هذين اللفظين بأن المراد بهو جوّا أن تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضا وعكس ذلك هو برّا » فزاد الأمر بعدا وغموضا .

مَن ذلك المختصر ؟ ومتى كان ذلك ؟ وعلى أى اللغات جرى ذلك الاختصار ؟ ما أظن هاتين الكلمتين « هو جوّا وهو برّا » ألا بربريتين ، وما أفهم هـذا الاختصار المدهش وكيف تؤدى (هو جوا) معنى اتباع الميمنة واتباع الميسرة وترتيب بعد ترتيب . وعلى كل فهذا الذى ذكره المؤرخ زيدان نقلناه توفية للبحث .

وظل النداء فى العصر الثانى باللغة العربيـة كما يرى ذلك عرضا فى أخبار الحروب[1] .

ولما غلبت العجمة فى الجند وبخاصة فى العصر الثالث سميت الحركات العسكرية بأسماء تختلف باختلاف لغة الجند وكذا فعلوا بأنواع الرماية وأصناف السلاح كما رأيت فى مصر المماليك يسمون الهدف الذى يضربون عليه فى أيام العرض « القبق »[2] وكذلك كانت تضطرهم الحال أن يمزجوا بين العربية ولغاتهم فى النداء وتسمية الآلات والحركات ، وإن كان المؤرخون لم يذكروا لنا شيئا من كلمات ذلك النداء ولو عرضا لعدم عنايتهم بغير العربية ، ثم كانت الدولة العثمانية وجميع مظاهرها الحربية تركية ونداؤها التركى لا يزال يردد فى فرق الجيش المصرى إلا ما علمنا منذ أيام من أن الفرقة السادسة عشرة المصرية قد أتمت التعلم بنداء عربى .

التخاطب بالرايات :

قد استعملوا فى النداء وسائل أخرى كالإشارة بالرايات ، فقد كان ذلك فى العصر الأول كما فعل النعمان بن مقرّن فى فتح نهاوند عام ٢٠ من الهجرة فقد قال لجنوده

(١) تاريخ ابن الأثير : ج ٨ ص ٨٧

(٢) انظر ص ٩ من هذه الرسالة .

« إنى هازٌّ لوائى ثلاث هزّات ، فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها وليقض حاجته ، وأما الهزة الثانية فلينظر الرجل بعدها إلى سيفه (أو قال شسعه) وليتهيأ وليصلح من شأنه ، وأما الثالثة فاذا كانت إن شاء الله فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد »[١] ولعلهم كانوا يفعلون ذلك إذا أرادوا الهجوم سراً وبغير جلبة تنبه العدو ، وقد استعملت هذه الإشارات فى العصر الثانى[٢] والثالث وارتقى منها فى أيامنا ما يفعله الجنود من المراسلات بالرايات ، وسيأتى فى البحرية من التخاطب بالرايات ما يشبه عمل الجند الآن تماما .

البوق « البورى » :

واستعملوا البوق لجمع الجنود وتنبيههم وكذلك لبدء الهجوم ولكن ذلك لم يسمع منه شىء فى العصر الأول أوقل فى الصدر الأول منه ولكنه وجد فى العصر الثانى فقد أمر الموفق جنوده فى حرب الزنج سنة ٢٠٧ هـ ألا يزحف أحد إلا إذا حرك علما أسود كان قد نصبه ونفخ فى بوق بعيد الصوت . وكذلك كان الأندلسيون أيام ملوك الطوائف يستعملون البوق لجمع الجنود ومرورهم[٣] ولا يزال البوق إلى اليوم فى الجيوش الحديثة باسم البورى .

الشعار :

وأما الشعار فهو ما يتنادون به فى الحرب يتعارفون فى ظلمة الليل ، وعند الاختلاط حتى لا يضرب بعضهم بعضا ، وقد تكون علامة يتعرفونها فى الثياب أو نحوها ، كما كان شعار الصحابة يوم بدر فقد كانت سيماهم الصوف الأبيض كما فى النسائى عن الامام على رضى الله عنه[٤] . ويكون بكلمات يتواضعون عليها كما كان شعار الصحابة فى بعض الغزوات « يامنصور أمت » وشعار المشركين

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى : ص ٣١١ ط شركة احياء الكتب العربية

(٢) تاريخ ابن الأثير : ج ٧ ص ١٣٣

(٣) نفح الطيب : ج ١ ص ١٧٦ ط مصر سنة ١٣٠٢

(٤) آثار الأول فى ترتيب الدول : ص ١٧٨ ط بولاق

« يا لَلْعزى يا لَهُبل » ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم شعار المهاجرين « يابني عبد الرحمن » وشعار الخزرج « يابني عبد الله » وشعار الأوس « يابني عبيد الله »[١] . وكان شعار المسلمين في قتال مسيلمة « يا أصحاب سورة البقرة » وشعارهم في بعض غزوات الترك « يامحمد » .

وذلك الشعار هو ما يعرف اليوم بكلمة السر ، وكلمة الليل ، وكلمة المرور ، وما أشبه ذلك من الأسماء .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي : ص ٣٠

فرق الجند
وترتيبها

إن البدو وهم جنود الصحراء قد استعانوا على النصر فى نزالهم بترتيب الجند وجعلهم كتائب، ولهم فى ذلك مختلف من الأوضاع والمصطلحات، لتسمية جماعات الجند، يختلف باختلاف أعدادها فانك ترى فى كتب اللغة :

«الجريدة» لأقل العسكر، ثم «السرية» من ٥٠ إلى ٤٠٠، ثم «الكتيبة» من ٤٠٠ إلى ١٠٠٠، ثم «الجيش» من ١٠٠٠ إلى ٤٠٠٠، وكذلك «الفيلق» و«الجحفل»، ثم «الخميس» من ٤٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠، و«العسكر» يجمعها[1].

وكانت للدول التى قامت بأطراف الجزيرة فرق منظمة وطوائف من الجند مدربة فكان للنعمان بن المنذر خمس كتائب يغزو بها ويوجهها وهى :

١ — الشهباء، ٢ — الرهائن، ٣ — دَوْسَر، ٤ — الصنائع، ٥ — الوضائع.

فأما الشهباء : فكانت تتألف من إخوته وبنى عمه ومن معهم من أعوانهم وعبيدهم سميت بذلك لبياض وجوههم، وأما الرهائن، ودوسر : فرهائن العرب، وأما الصنائع: فبنو قيس وتيم اللات، وأما الوضائع: فألف رجل من الفرس وجههم كسرى أعوانا فكانوا يقيمون سنة ثم ينصرفون ويجىء غيرهم[2]، وكأنه احتلال فى ثوب المعونة.

هذا والفرس والروم إلى جوارهم لهم فى الجند ترتيب حسن ونظام بديع شهده القوم وشارفوه؛ فقد كان للفرس تقسيم رباعى : يجعلون الجند على أربعة أقسام. على كل قسم أمير يسمى «ميرميران» وكل أمير معه أربعة يسمى كل منهم «اصفهبذ» ومع كل اصفهبذ أربعة يسمى كل منهم «مرزبانا» ومع

(١) فقه اللغة للثعالبي: ص ٢٢٠ طبع الخانجى سنه ١٣٢٥
(٢) المخصص لابن سيده : ج ٦ ص ٢٠٤ طبع بولاق

كل مرزبان أربعة يسمى كل منهم « سالار » ومع كل سالار عشرة يسمى كل منهم « أسوار » ويجمعون على أساورة وهم الفرسان المفردة ومع السالار أيضا خمسة من الرجالة، وتسمى « البيادة » فوق العشرة الأساورة[١] .

وللروم تقسيم منتظم أيضاً : — يجعلون للجيش أمراء، الواحد منهم يعرف بالبطريق ، ويقود عشرة آلاف وتحت البطريق اثنان «طومرخانية» يقود الواحد منهم خمسة آلاف وبعد الطومرخان « الطرنجارى » ويقود ألف رجل ، وبعده « القومسى » يقود مائتين وبعده « القمطرخ » « فالدامرخ » وتحته عشرة رجال[٢] .

* * *

ولقد كان أول جيش للعرب فى حياتهم الدينية الجديدة على قلة من العدد لم يقسم فرقا ولم يكتب كتائب ، فلما تكاثر العدد وكان الفىء والغنيمة احتاج الرسول عليه السلام إلى طريق سديد لأمر الجند وإرشادهم وتوزيع الغنائم فيهم، فعرف عليهم العرفاء ونقب النقباء[٣] يكونون منه مكان قواد « الأورط » الآن من القائد فى إبلاغ أوامره إلى جنده والتفتيش عليهم وإيصال نصيبهم من الغنائم وما إلى ذلك ، واستعملت لذلك العهد الأوضاع اللغوية كالجريدة والسَّرية ، وزيد على ذلك تسمية الجند الذين يصحبهم رسول الله بـ«الغزاة» وموقعتهم بـ« الغزوة » ومن لم يصحبهم الرسول عليه السلام فـ « سرية » .

ولما وضع بعد ذلك الديوان ورتب العطاء على الأنساب كانت فرق الجند ،

(١) آثار الأول فى ترتيب الدول : ص ٣٨ ط بولاق .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى : الجزء الأول ، وذكر صاحب آثار الأول أن للروم تقسيما عشريا فيجعلون للجيش أمراء عشرة وتحتهم عشرة نقباء يليهم عشرة عرفاء وتحتهم عشرة قواد وتحت كل عشرة فرسان أو رجالة ولعله يصف جيشهم فى عصر غير الذى نقل نظامه جورجى بك زيدان وإلا فإننا لا نستطيع التوفيق بين هذين النظامين هذا وقد ذكر صاحب المسالك والممالك « الداقرخ » بالقاف ص ٥٦ ، وذكرها زيدان بالميم كما ترى .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى صفحة ٣٠ .

فكان للمهاجرين شعار وللانصار شعار كما رأيت فيما سبق ولـكل لواء كما سترى.
وقد تنسب الفرقة إلى عملها فى الجيش كفرقة « أهل الراية » فى جيش الفتح فقد كانت تجمع ناسا من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس وجُرَش من كنانة وليث بن بكر والعتقاء.

وقد تسمى فرقة من الجيش بحادثة أو مناسبة كما كان بمصر أيضاً فى جيش الفتح الفرقة المعروفة « باللفيف » وعامتهم من الأزد من الحجر ومن غسان ومن شجاعة والتف بهم نفر من جذام ولخم والوحاف وتنوخ وقضاعة ، وإنما دعوا « باللفيف » لأن عمرو بن العاص أيام الفتح بعث بعمرو بن حمالة الأزدى ليأتيه بخبر مراكب الروم فتسرعت هذه القبائل للحاق به فلما رآهم عمرو بن حمالة واستكثرهم قال: تالله ما رأيت قوما سدوا الأفق مثلكم انكم لكما قال الله سبحانه «فاذا جاءوعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً» . فسموا من يومئذ اللفيف ، وسألهم عمرو ابن العاص أن يفرد لهم دعوة فى العطاء فامتنعت عشائرهم من ذلك فقالوا لعمرو فإنا نجتمع فى المنزل حيث كنا ، فأجابهم إلى ذلك ، فكانوا مجتمعين فى المنزل ولهم فى الفسطاط خطة ، ولـكنهم متفوقون فى الديوان ، إذا دعوا انضم كل منهم إلى بني أبيه[1] .

وكذلك كانت حال فرق الجند إبان العصر الأول أيام العصبية والنعرة الجنسية تنتسب كل فرقة منهم إلى بنى أبيهم يضمهم منزل خاص بهم ودعوة فى الديوان منفردة ، فقد كان جند البصرة على عهد بنى أمية أخماساً : خمس الأزد ، وخمس تميم ، وخمس بكر ، وخمس عبد القيس ، وخمس أهل العالية وهم « قريش ، وكنانة ، والأزد ، وبجيلة ، وخثعم ، وقيس عيلان كلها ، ومزينة »[2] وكل خمس ينقسم إلى عرافات يتراوح عددها بين العشرة والخمسة عشر رجلا عليهم عريف يباشرهم فى الحل والترحل ، والمنزل والعطاء ، وفوق هؤلاء النقباء ، وهكذا يتمشى مع الأنساب والعصبيات وما كان لهذه الأخماس عدد محصور محدود ،

(١) كتاب الانتصار لابن دقماق : ج ٤ ص ٣ ط بولاق
(٢) تاريخ ابن الأثير : ج ٥ ص ٢٧

« كالأورطة » عندنا الآن بل تتناوبه الزيادة والنقصان باختلاف المواليد والقتلى والحاجة وما أشبه ذلك .

ثم كانت أيام بنى العباس ومن بعدهم من دول الأطراف وقد امحت العصبية وخفت النعرة الجنسية ، وانقسم الجند فرقاً تتألف من أخلاط الناس ما بين فارسى وصقلبى وروى وتركى ونوبى وغيرهم وتدعى هذه الفرق تارة بأسماء قوادها وطوراً باسماء رجال اشتهروا فيها وآناً بصفتها ، فقد كان فى العباسية حوالى القرن الرابع من فرق الجند « البليقية » نسبة إلى ابن بليق « والهارونية » نسبة إلى هارون بن غريب « والساجية » نسبة إلى يوسف بن أبى الساج ، وكذا « الشفيمية » و « النازوكية » وغيرها ، وكما كانت قبل ذلك « الحربية » نسبة إلى حرب بن عبد الله من أكابر قواد المنصور[1] ، وكانت هنـــاك « الشاكرية » جمع « جاكرى » وهو معرب « جاكر » بالفارسية أى « الأجير »[2] .

وكان التقسيم فى هذه الفرق على العشرات والمئات يجعلون :

(عريفا) على العشرة ، وهو يقابل الأونباشى فى التسمية الحديثة .

و (خليفة) على الخمسين .

و (قائدا) على المائة ، وهو يقابل اليوزباشى فى التسمية الحديثة .

وهكذا ذكر ابن الأثير ذلك التقسيم فى تاريخه[3] .

لكن جاء فى مجلة الهلال[4] أنهم كانوا يجعلون على العشرة (عريفاً) وعلى المائة (نقيباً) وعلى الألف (قائداً) ولم أر لهذا النقل مصدراً .

ثم كانت دول الأطراف فكان ترتيب يختلف باختلاف الأقاليم واللغات والرأى،وإليك على سبيل المثال ترتيب جند المماليك بمصر فقد كانوا يجعلون على العسكر (أتابك) ومعناه (الوالد الأمير) أو أمير أب ، وأول من لقب بذلك

---

(١) تاريخ ابن الأثير فى مواضع متفرقة

(٢) القاموس المحيط : مادة شكر

(٣) ابن الأثير : ج ٧ ص ٧٣

(٤) المجلد ١٧ ص ٤٥٧

نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى حين فوض إليه ملكشاه تدبير الملك (سنة ٤٦٥ هـ) والمراد أبو الأمراء[١] وتحت الأتابك (مقدمو الآلاف) للواحد منهم التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء .

ثم (أمراء الطبلخانات أو مقدمو الخمسين) يكون للواحد منهم من أربعين إلى ثمانين فارسا ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين .

ثم (أمراء العشرات) يكون للواحد منهم العشرة إلى العشرين .

ثم مقدمو الخمسات أو أمراء الخمسات[٢] .

ونهضت العثمانية من فلوات آسيا الصغرى فتألف جيشها الأول من المتطوعة يحاربون تحت لواء أميرهم على ظهور جيادهم حتى يقتسموا الغنيمة ، ولم يكونوا يتميزون بشيء من اللباس أو الطراز ، ولكن كان إذا عزم السلطان على الحرب بعث المنادين يستنفرون الناس حتى أنشأ علاء الدين بن عثمان وزير (أورخان) أخيه فرقة من المشاة المأجورين يسكنون الثكنات على استعداد للحروب فى كل حين ، ودعا هذه الفرق باسم (بياده) وجعلها عشرات ومئات وألوفا على نحو ما كان فى الدولة العباسية ، واستفحل أمرهم حتى قلق السلطان من وجودهم فكان مشروع الإنكشارية على نحو ما بينا فى تكونهم وقسموا إلى (وجاقات) واحدها (وجاق) ، و (الوجاق) يقسم إلى (أورط) واحدتها (أورطة) ولكل أورطة رقم تعرف به ، ولبعضها أسماء خاصة ، ويختلف عدد الجند فى كل أورطة حسب الأعصر من ١٠٠ إلى ٥٠٠ ، ويختلف عـــدد (الأورطة) فى (الوجاق) وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك .

وقائد الوجاق يسمى (الأغا) ويقابله اللواء فى هذه الأيام .

وتحته (سكبان باشى) وينوب عن الأغا ويقابل القائمقام اليوم .

و (قول كتخيا) أو (الكتخيا بك) نائب الأغا أو السكبان باشا .

---

(١) صبح الأعشى : ج ٤ س ١٨

(٢) المصدر نفسه : ج ٤ س ١٤ ، ١٥ ، وآثار الأول : ٣٨

و « محضر أغا » ينوب عن الإنكشارية عند الصدر الأعظم .

و « خصكى » ينوب عن الأغا فى القيادة على الحدود .

و « كخيارى » ينوب عن الوجاق لدى الأغا .

و « الأفندى » الكاتب .

ولكل أورطة ضباط يتولون إدارتها على الترتيب الآتى :—

« الچوربچى » رئيس الأورطة يشبه « الكولونيل » .

« أوده باشى » نائب الچوربچى فى المناورات العسكرية .

« وكيل الخرج » يتولى الطعام والشراب .

« بيرقدار » يتولى الأعلام والبيارق .

« اشچى » الطاهى .

وإلى جانب هذا كانت فرق أخرى كالبيادة غير النظامية التى لم تكن لها أجور وكانت تعرف بالبيادة الخفيفة يقذف بها على العدو أول المعركة لتشديد الحصار على بلد أو معقل ، وكذا فرق الخيالة المأجورة . وإلى جانب هذا كان الأمراء الذين أقطعوا الأراضى والأخاذات التى كانت تعرف الصغيرة منها « بالتيمارات » والكبيرة « بالزيامات »[1] .

وقد شرط عليهم لذلك أن يقدموا فرقة أو جملة فرق من جنود الخيالة المسلحة عن الحرب ، ونختم هذا البحث بجريدة تتبين فيها مراتب الجند قديما وحديثا وإليكها :

---

(١) مجلة الهلال : المجلد ١٧ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، وكتاب تاريخ الأتراك العثمانيين = ج ١ ص ١٣ ، ١٩

مراتب الجند قديما وحديثا

الفرس	الرومان	العباسيون [1]	المماليك	العثمانيون	الفــــرنج
ميرميران	بطريق	قائد	أتابك	سردار	فيلد مرشال
اصفهبذ	طومرخان	نقيب	مقدم ألف	مشير	جــنرال
مرزبان	طرنجارى	عريف	أمير طبلخاناه	فريق	لفتنانت جنرال
سالار	قومس	جندى	أمير عشرة	لواء	برجدير جنرال
أسوارجياده	قطرخ		أميرخمسة	أميرالاى	كولونيل
	داقرخ [1]		جندى	قائمقام	لفتنانت كولونيل
				بيكباشي	ماجوز
				يوزباشي	كبتن
				ملازم	لفتنانت
				صول	كوندكتور
				صــف ضباط	
				باشجاويش	سرجنت ماجور
				جاويش	سرجنت
				أونباشي	كوربرل
				وكيل أونباشي	سكوند كوربرل

(١) من المسالك والممالك لابن خرداذبه طبع ليدن ص ٢٥٦ وذكر زيدان بك الدامرخ بالميم بدل القاف ولا أعــرف سنده فى ذلك

(١) هذا الترتيب ذكره زيدان وهــو يخالف ترتيب ابن الأثير كما سبق ذكره.

الأسلحة

نبدأ فى وصف الأسلحة بأبسطها وهو ما يعمل به رجل واحد فنذكر أولا :

السيوف : وهى أشرف السلاح عند العرب ، استقوها من قولهم ساف ماله أى هلك لأن السيف سبب الهلاك .

وكان العرب فى جاهليتهم وصدر من الإسلام يجلبونها مما جاورهم من الأقاليم التى تطبعها لفقر البلاد وعدم العناية بالصناعة ولذا ينسبونها إلى مواضعها فيقولون المهند والهندوانى نسبة إلى الهند ، والمشرفى نسبة : إلى المشارف وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، ولا شك أن أطراف الجزيرة المتصلة بالسواحل والبلاد العامرة كانت تطبع السيوف كما رأيت فى المشارف وكما كانت الحال فى الحيرة حيث تنسب إليها السيوف «الحارية»[١] .

وتتخذ السيوف تارة من ذكر الحديد الذى هو أجوده وأيبسه وهو الفولاذ وهذه السيوف لمضائها كانت تنسب العرب صناعتها إلى الجن ، وتارة تكون شفراتها من حديد ذكر ومتونها من حديد أنيث وتسمى المذكرة[٢] ومن هذا النوع كانت السيوف الإفرنجية ، وقد يكون السيف كله من حديد عادى ، ويقال للسيف إذ ذاك أنيث .

ولما امتدت للمسلمين الدولة وانبسط العمران صنعت السيوف فى كثير من الأقطار التى فيها المعادن ، ومن الموصل كانت تجلب الآلات الحديدية كالسكاكين والسلاسل والنشاب وغيرها[٣] ، واختلفت إذ ذاك السيوف باختلاف الصناعة فى الأقاليم فلم يشابه السيف المصرى السيف العراقى أو الشامى ، ولم يماثل المغربى .

---

(١) و (٢) صبح الأعشى : ج ٢ والمخصص ج ٦ .

(٣) أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم للهمذانى (طبع أوروبا) صفحة ١٤٥ .

وكان من السيوف الطويل المعتاد ، والقصير ويسمى « أبتر » فان قصر حتى يكون تحت الثياب سمى « المشمل » لأنه يشتمل عليه بالثياب — ثم إن كان عريضاً سمى « صفيحة » وإن كان دقيقاً لطيفاً سمى القضيب ، فإن كان فيه طرائق ممتدة فى متنة كالخيط سمى « المشطب والمشطوب » وإن كان فيه حزوز مطمئنة قيل فيه فقارات وبه سمى « ذو الفقار » سيف رســـول الله صلى الله عليه وسلم .

وتدرجت الصناعة مع القوم فلما تمرسوا بالعلم والعمل سقوا السيوف حتى أعدوا منها المرهف الباتر ، وكانت لهم سقايات متعددة بمختلف المواد من أجودها السقاية بالبورق والملح وملح البول والزرنيخ والنورة على نسب ذكروها فكان السيف المسقى بها يقطع عمود الحديد الذى زنته عشرة أرطال[1] :

وتتخذ للسيوف حمائل تكون على الأكتاف ، وأول ما عرف من شد السيوف على أوساط الجند أن سيف الدين غازى صاحب الموصل وأخا الملك العادل نور الدين الشهيد أمر الأجناد ألا يركبوا إلا بالسيوف فى أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم ، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف ، وكان ذلك فى أواسط القرن السادس الهجرى[2] ومن السيوف ما يكون بمعاليق لا حمائل ، وكان الخليفة إذا غضب على رجل منعه من أن يركب بسيف ذى حمائل كما فعل الرشيد مع الفضل بن الربيع فكان يركب بسيف ذى معاليق ، فكأن هذه اللبسة كانت لبسة المغضوب عليهم ، كما يفعل اليوم بالموقوفين من ضباط جندنا ، فإنهم يؤمرون برفع السيوف وعدم تركها تنجر على الأرض[3] .

* * *

(١) كتاب الأنيق فى المجانيق : ص ٢٧ وسنقول عنه كلمة فيما بعد .

(٢) خطط المقريزى : ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) تاريخ بغداد لابن طيفور ج ٦ ص ١٦ .

الرماح :

وهى آلة الطعن تتألف من قناة يجعل فى آخرها حديدة مدببة هى السنان ، وتذيل بحديدة فى أسفلها تركز عليها تسمى الزُّج ، وكانت العرب تتخذ قنيها من الوشيج أو المران ويجلب إليها من الهند ، ومرفأ السفن التى تجلبها قرية بأرض البحرين يقال لها الخط ، وإليها تنسب الرماح فيقال«الخطية»،وقد اتخذها المسلمون فيما بعد من خشب الزان وكانت تسمى الرماح المتخذة منه الذوابل[1] .

وكانوا يجعلون فى الأسنة خرقة سماها العرب الأولون عذبة الرمح وسميت بعد العصابة لأنها تعصب الرمح من أعلاه ، وسمى الترك الراية « سنجق » وهو فى لغتهم الطعن ، سميت الراية به لأنها تكون فى أعلى الرمح وهو آلة الطعن[2] .

ويشبه هذه المذبة أو العصابة ما تتخذه جنودنا الراكبة اليوم فى أطراف أسنة الرماح من الراية المؤلفة من قطعتين خضراء وحمراء .

ويلحق بالرماح «الحراب»واحدتها حربة ، وهى أقصر من الرمح ، و«العنزة» قدر نصف الرمح أو أكبر وفيها زج . والمزاريق ما زرق به زرقا وهو أخف من العنزة .

ولما استعملت النار اليونانية أصاب الرماح منها شىء كثير ، وسنذكره عند الكلام عليها بعد .

* * *

القسى :

وهى عيدان من النبع تحنى على مثال قوس الدائرة تقريباً،ويشد طرفاها بالو —

---

(١) المخصص : ج ٦ وصبح الأعشى:ج ٢ ص ١٣٤.
(٢) صبح الأعشى : ج ٢ ص ١٢٨ .

المحكم الفتل،فإذا جذب إلى حنية النبع ثم خلى قذف السهم بقوة .

والقسى عربية ، وتكون من الخشب فقط ، وفارسية وتكون من الخشب والقرن والعقب والغراء ، وما يرمى به عن القسى العربية « النبل » وعن الفارسية « النشاب ».

وموضع إمساك الرامى من القوس يسمى « المقبض » ومجرى السهم فوق قبضة الرامى يسمى « كبد القوس » وما يعطف من طرف القوس « سية القوس » .

وتتخذ السهام من خشب قريب العقد متوسط ، واتخذها العرب من النبع يقطون عيدانه ويشذبونها ثم تلحى عنها القشور وتصلى بالنار حتى تلين وتقوم ثم يقرض فوقها وتراش وتعقب ، واتخذها الجند بعدهم من خشب « القراصيا » وكان أجود ما تتخذ منه السهام عندهم[1] .

وأجزاء السهم : الفوق وهو موضع الوتر ، منه والقدح السهم قبل الريش ، والنصل وهو الحديدة تجعل فى طرفه الأعلى ومنها العريضة التى تبعج ، والطويلة الدقيقة التى تنفذ فى حلق الدرع وتسمى السهام الدرعية .

ونياط القوس معلقها وهى من القوس بمنزلة حمالة السيف يلقيها المتنكب فى منكبه الأيمن ويخرج يده اليسرى منها ، فتكون القوس فى ظهره وقد توشح كتوشح السيف، وربما جعل الحمالة فى صدره وأخرج منكبيه منها فتصير القوس على كتفيه .

واتخذ العرب كنائن توضع فيها تارة تكون من جلد وطورا تكون من خشب ، وكان الجنود بمصر (فى العصر الثالث) يحملون ما يسمونه « الكمندانه » لوضع النصل فيه حذراً عليه من الرطوبة والحرارة المفرطة ، وكانوا يحملون فى السرج المبرد والمطرقة لإصلاح نصال السهم[2] واصطنع

---

(١) الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية (خط) سنتكلم عنه فى الكلام عن البحرية

(٢) كتاب « إيضاح المرامى لشرح هداية الرامى إلى طريق المرامى وهذا الإيضاح تأليف الشيخ محيى الدين بن تقى الدين السلطى (فى القرن الحادى عشر الهجرى)

العرب هنة من جلد يغشون بها إبهام اليد القابضة للقوس عند رمى السهام، وسموها « الختيمة » فاتخذها جنود المماليك بمصر من النحاس كصفة « الكشتبان » وعرفت عندهم بـ « الطارقة »(١) .

وبشيوع النار اليونانية دخل استعمالها فى السهام وسيأتى ذكرها بعد . وفى العصر الثالث اتخذت قسى ترمى بندق الصيد وتسمى « الجلاهق » وهى قسى تتخذ من « القنا » ويلف عليه الحرير ويغرى ويجعل فى وسط وتره قطعة دائرة تسمى « الجوزة » توضع فيها البندقة عند الرمى ، ولم تستعمل إلا فى الصيد ولكنا ذكرناها تتميما للفائدة .

وقد تفننوا فى القسى وتقويتها حتى اتخذوا بمصر قسياً عظاما توتر بلوالب تجربها، ويرمى عنها بسهام عظيمة يعرف السهم منها ، بـ « الخاطى » وهو فى اللغة الغليظ الحاد، وتكاد تلك السهام لقوتها تخرق الحجر(٢) .

* * *

المقاليع :

ومما يلحق بالقسى « المقاليع » وهى أبسط أنواع الآلات القاذفة يستعان فيها بقوة الطرد المركزية، وذلك بجعل القذف فى طرفها بين حبلين يجمعان فى يد القاذف من الطرف الثانى فيديرها ثم يخلى أحد الطرفين فينبعث المقذوف بعيداً وظلت تستعمل فى الجيوش لرمى الحجارة على قلة وعدم عناية ، ويكون مع من يحملها « المخالى » لحمل الحجارة التى يرمى بها(٣) . ولا يزال القلاع

خط بدار الكتب المصرية فرغ من نسخه سنة ١٠٨٠ هـ . وكتاب هداية الرامى المشروح يشتمل على أحكام فقهية تخص بندق الصيد والرماية به والصيد الخ. من فهرست المكتبة البروسية ببرلين س ٧٥ ج ٥

والكتاب المشروح (هداية الرامى) لأبى العباس أحمد بن برهان الدين أبى اسحق ابراهيم بن شهاب الدين أحمد سبط ابن حرز الله الحاكم على رماة البندق بدمشق (فى القرن السابع الهجرى) من الفهرست السابق ذكره ، ومن الصفحة والجزء عينهما

(١) المصدر السابق .

(٢) صبح الأعشى : ج٢ ص ١٣٨ .

(٣) الكامل لابن الأثير : ج ٧ ص ٤٥ ، ١١٦

معروفا عندنا حتى اليوم ، يستعمل في الرمى ذوداً عن المزارع ، ينفر الطيرعنها ، أو يصيب العادى عليها .

* * *

الطبرزينات « الفؤوس » :

كثر ذكرها في كتب التاريخ باسم الطبرزينات وهى معرب « تبر » أى الفأس بالفارسية ولذا يسمى السكر الصلب بالفارسية « الطبرزذ » أى الذى يكسر بالفأس[1] ، وكانت الجنود تستصحبها للتضارب بها عند اللقاء .

* * *

العمد « الدبابيس » :

العمد آلات من حديد ذات أضلاع يقاتل بهـــا لابسو البيضة ، ويتضاربون بها بعد التضارب بالسيوف والرماح[2]،وقد عرفت بعد العصر الأول باسم الدبابيس وواحدها دبوس ، ويجعلها الفارس في السرج تحت رجله ، ولمـا استعملت النار والنفط أدخل استعمالها في الدبابيس،وسيرد ذكر الدبابيس النارية .

* * *

المنجنيق :

آلة قاذفة وأبسط ما يقال في شرحها : أن لها دفتين قائمتين بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق فتوضع المقذوفات فيها ويجذب السهم حتى ترتفع أسافله على أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الـكفة فيخرج ما فيها بشدة[3] .

(١) و (٣) صبح الأعشى : ج ٢ ص١٣٦
(٢) الـكامل لابن الأثير : ج ٤ ص ١٠٢

وهى آلة قديمة استخدمها الفينيقيون قديما ، وعنهم أخذها اليونان والإسرائيليون ، وورد ذكرها فى التوراة[١] مراراً ، وعنهم اقتبسها الفرس والرومان .

ولعل العرب من ذوى الدول بأكناف الجزيرة قد استعملوا المنجنيق قبل الإسلام، فقد نقل القلقشندى[٢] أن أول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك الحيرة على العرب ، فلا بد أن قد سبق للقوم استعمال سهل دعوى من ادعى لهم اختراعه ، ويرجح هذا استعمال المسلمين المنجنيق فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قبل الاتصال القوى بالفرس والنقل عنهم ، فقد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الطائف سنة ثمان من الهجرة[٣] كما استعمل الدبابة فى هذه الغزوة أيضا، بل قيل إنه استعمل المنجنيق فى خيبر سنة سبع هجرية .

وقد أكثر المسلمون من استعماله فى فتوحهم إبان العصر الأول على عهد الأمويين ورموا به عظيم الحجر ، بل اصطنع « مسلمة بن عبد الملك » فى حصار مدينة « الباب » حديداً على هيئة الحجارة ورماهم به[٤] .

وعنوا بالمنجنيقات حتى اتخذوا منها الكبار الهائلة ، فقد كان مع « محمد بن القاسم » فى غزوة « الديبل » منجنيق عظيمة تعرف « بالعروس » كان يمد فيها خمسمائة رجل[٥] فاعتبر بذلك عظم ما ترميه .

وزادت عنايتهم بالمنجنيقات ، واستكثارهم منها حتى نصب مروان بن محمد على حمص فى قتاله سليمان بن هشام الخارج عليه نيفا وثمانين منجنيقاً[٦] .

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى : ج١ ص ١٤١

(٢) صبح الاعشى : ج ٢ ص ١٣٧

(٣) السيرة الحلبية: ج ٢ ص ١٢٣ وسيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٣٠٣

(٤) و (٥) فتوح البلدان للبلاذرى : ص ٤٤٢ ، ٢١٤

والديبل مدينة على ساحل بحر الهند شرقى مهران « قاموس الأمكنة والبقاع » وكان ذلك الفتح فى أيام هشام بن عبد الملك .

(٦) ابن الاثير . ج ٥ ص ١٢٤

وبهذه العناية حسنوا المنجنيقات ، فكانت لديهم منها الأنواع الكثيرة والأصناف المختلفة .

فمنها العربي المبين وهو أتقن مصنوعاتها .

ومنها التركي وهو أقلها كلفة .

ومنها الرومي والإفرنجي والمغربي والفارسي[1] ، ومنها ما هو لرمي السهام، وما هو لرمي قدور النفط وغير ذلك ، ومنها الصغير يحمل في السفن ، وعلى الأبراج ، والكبير العظيم .

ومهروا في تحديد المسافات وإصابة المرمى ووضعوا القوانين والآلات لتحديد الزاوية وضبطها ، ونجد صفة المنجنيق وأجزائها وصفة عملها في كتاب « الأنيق في المجانيق » محلاة بصور يدهش رائيها حتى لا يكاد يصدق أن الإتقان قد بلغ بالقوم إلى هذا الحد العجيب ، ولولا ضيق الوقت وعدم المكنة لاستمرت من الأستاذ أحمد زكي باشا بعض زجاجات تلك الصور وطبعتها إثباتا للحقيقة وتوفية لحق القوم على التاريخ والخلف[2] .

وبالعناية هونوا صعوبات العمل حتى جعلوا في مكنة رجل واحد أن يدير منجنيقاً كبيراً[3] .

وكانوا يقذفون بالمنجنيقات الحديد والأحجار والسهام النارية وقدور النفط وقدور الكلس والسوائل الملتهبة ، وسنوفي ذلك حقه عند الكلام على النار والمقذوفات النارية ، ونختم القول في المنجنيق بوصف الراجز له شعراً ، ترويحاً للقارئ ، قال[4] :

كأنها حين تناهى الباس   جنية في رأسها أمراس

---

(١) و (٣) الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية لابن منكلي .

(٢) كتاب الأنيق في المجانيق ، ألفه شمس العلامة كلي بغا الشمسي الزردكاش (أو صانع الزرد) عام ٨٦٧ هـ وهو في جملة كتب زكي باشا التي أودعها بالمكتبة الخديوية مأخوذ بآلة التصوير في ١٠٩ لوحة بعضها مكرر وفيه وصف المنجنيق وأجزائه وطريق صناعته الخ . وسنذكره عند الكلام في المقذوفات .

(٤) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ١٠٢ .

بها سكون وبها شِماس يخرج منها الحجر الكُباس
يمر لا يحبسه حبّاس لا نافذ الطعن ولا ترّاس

* * *

الدبابات القلاع المتحركة « التانكس » :

هذه آلات يُكاد بها للأسوار والخنادق ، وقلاع يقيمها المحاصر في العراء .

فالدبابة : آلة سائرة تتخذ من ثخين الخشب وتكون مركبة على عجل مستدير يسهل حركتها ويجعل على سطحها طَفْل أو عجينة تراب معجونة بوبر الوحوش ويجعل فوق العجين جلود البقر لتقيها من الحجارة التي ترمى بها ، وإن كان مع المحصورين نار جعلوا فوقها اللبود أو الجلود المنقعة في الخل لتقيها النار ، أو يجعلون فوقها أغصان الشجر الخضراء ثم تقدم إلى السور[1] فينقبه من فيها .

وقد يجعلون داخلها سلسلة حديد نازلة من أعلى وفي طرفها خشبة عظيمة في قلب حديد وطرفه على صفة رأس البكر ، وذلك الرأس من معدن فيجذبون السلسلة وعند الجذب يدخل رأس البكر في البرج وإذا أطلقوا السلسلة يخرج الرأس ويضرب السور مراراً بسرعة فيحدث ثغوراً في الموضع المقصود . وتسمى هذه الآلات « بالضبور » فقد قال في تاج العروس[2] « والضبر جلد يغشى خشبا فيها رجال تقرب إلى الحصون للقتال جمعه ضبور » ، وهذا النوع الأخير المشتمل على رأس يسمى « الكبش » ويجمع على كبوش وكباش .

واتخذوا من هذا النوع أبراجا زحافة أعلى من الأسوار ، وهي قلاع متحركة تحاصر القلاع الرواسي ، وتدبر حركتها إما بلوالب أو بمشاقص أو يجعلون

---

(١) آثار الأول ص١٩٢ أو العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع

(٢) مادة « ضبر » و « كبش » .

فى أسفلها عجلا وفوقه أضلاع ، فيأتى الرجل بالمشاقص فيدخلها بين تلك الأضلاع الخشب ويدعمها على موج ثم يقيمها فتندفع وتجرى على سهولة العجل التى ركبت عليها ، ويقعد الرجال فى أعلاها وقد أديرت حولهم الستور والطوارق للوقاية من النار والأحجار ، فيتمكنون من السور .

وكان لتلك الزحافات جسور ترمى على الخنادق فيتصل الطريق بين القلعتين المتحركة والمحصورة ، وكانت تلك الأبراج الزحافة من القوة بحيث تحمل المنجنيقات ويكون مع الواحدة خمسة جسور متحركة فإذا وصلت إلى المكان الضيق تضع واحداً إثر واحد ، وترى فى لوحة « ٦٩ » من كتاب الأنيق فى المجانيق ، صورة زحافة بجسر يرمى فوق خندق ، وفى لوحة « ٨٥ » من هذا الكتاب صفة برج خشب وخلفه منجنيق وأمامه سلالم لاعتلاء السور وهو يمشى .

وإنك إن تر هذه الصور لا تدرى من أى الحالين تعجب أمن عظم تلك الآلات فى تلك العصور التى لم نكن نحسبهم عرفوا غير البعير والشاة؟ أم من دقة التصوير واتقانه حتى لتحيل أن يكون هذا عمل يد ؟ ولو أن آلة التصوير تحيل ما تصور لتخونتها وأبعدت أن تكون تلك الصور من عمل شرقى عاش فى القرن التاسع للهجرة ، وإذا كانت تلك صناعتهم وتلك صورهم فاللهم احكم بينهم وبين خلفهم العاق !

وننهى الحديث بأن نقول : إنه على تلك المثل اخترعت « التانكس » التى عملت فى الحرب الأخيرة عملها .

النار والبارود

هذه النار التى ينعتها المؤرخون باليونانية ليست إلا اختراعاً مشرقياً اهتدى إليه رجل من أهل بعلبك يدعى كلينيكوس وأوضحه للبيزنطيين سنة ٦٦٨ م وكانوا إذ ذاك فى إبان حاجتهم إليه ليردوا هجمات العرب عن القسطنطينية وغيرها من ممتلكاتهم التى روعها العرب فكتموا سر استعمالها حتى تمكن المسلمون

أخيراً من معرفته فى أواخر العصر الأول فإذا هى مخلوط « بطن » أنه كان يحتوى على راتنج وبترول، وقد قال البستانى فى دائرة المعارف : « من المحقق أنها لم تكن سائلا » ولكن جاء فى تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان بك أنها سائل يطلق من اسطوانات نحاسية[1]. وعلى كل فهى مزيج سريع الاشتعال فى الهواء ولم أر لها وصفاً فى شىء من الكتب العربية التاريخية ولكنهم أكثروا دائما من ذكر النفط الذى هو خلاصة القار البابلى وله قوة يسبب بها النار، فإنه يستوقد من النار وإن لم يماسها ولونه أبيض وقد يكون منه الأسود أيضاً[2] .

ولما استعمل القوم هـــذه المواد الملتهبة أدخلوا استعمالها فى الرماح والسهام والدبابيس .

فمن ذلك ماكان يعرف برمح الخاسقة وهو رمح يجعل فى سنانه كُلاَّباً من الحديد وحلقة حديد أيضاً ، ويلف السنان بلباد عليه مزيج من المواد المشتعلة.

ومنها : رماح بلا سلاسل ملفوف على سنانها شبكة شريطية مدهونة بمواد مكونة من نفط ومساحيق وغير ذلك ، وتجد فى لوحة ١٠٥ من كتاب الأنيق فى المجانيق صوراً من تلك الرماح .

وكذلك فعلوا بالسهام والدبابيس وتفننوا فى استعمال النصال الملتهبة واتخذوا بعضها من الزجاج ، كما ترى فى لوحة ١٠٦ من كتاب الأنيق المذكور صورة دبوس نارى وفى لوحة ١٠٨ منه صورة نصل نارى من زجاج .

واتخذوا منها القدور التى ترميها المجانيق على شكل كرات وسنذكرها بعد تقديم كلمة فى البارود والمدافع .

---

(١) الجزء الأول صفحة ١٤٥

(٢) المفردات ابن البيطار الجزء الرابع صفحة ١٨٢

البارود :

لم يتم للمؤرخين اتفاق على اسم مخترع البارود ، ولا الأمة التى سبقت إلى معرفته فقد ادعاه بعضهم للهنود ، وأن الصينيين استعملوه وأخذوه عنهم سنة ٨٠م ، وعنهم أخذه العالم(١) ولكن لا برهان على ذلك .

وادعاه الإفرنج على اختلاف بين مؤرخيهم لأحد رجلين هما :«روجر باكون» المتوفى سنة ١٢٩٤ م ، والراهب « برثو لدشوارتز » الذى عاش فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى . لكن ثبت أن العرب استعملوه قبل زمن أقدم الرجلين ، فقد ذكر ابن خلدون فى تاريخ سنة ٦٧٢ هـ الموافقة سنة ١٢٧٣ م فى فتح السلطان أبى يوسف سلطان مراكش لمدينة سجلماسة ما نصه :

« ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث أمام النار الموقدة بالبارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال » إلى قدرة باريها(٢) ..

فإن رآه الإفرنج على يد «روجر باكون» فهو ناقل عن العرب لا مخترع ، وهذا ما عليه أغلب المؤرخين .

---

(١) دائرة المعارف للبستانى فى المجلد الخامس « بارود »

(٢) وجاء فى هامشة من هوامش صاحب السعادة صديقنا الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٣١٥ ما عبارته — وهى عبارة صاحب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى فى فصل منقول عنه ونصها — على ما قال — يعنى المنصور السعدى إذ الحديث عنه « من أن البارود لم يكن فى تلك الدول الفارطة موجوداً فيها بكثرة فلا يرد عليه أن ظهوره كان فى أوائل المائة السابعة لأول دولة بنى مرين » فهو أسبق مما ذكره ابن خلدون هنا فى الثلث الأخير من المائة السابعة بل هو فى أوائلها .

المـــدافع

لقد اضطرب القول فى اختراعها وسبق الأمم إلى استعمالها فلا تزال الناس تتنازع هذه الأسبقية أيضاً ، على أنا نقطع بأن استعمالها عند الشارقة لم يكن إلا فى العصر الثالث من عصور الجندية التى رسمناها ، ويرجح أن ذلك كان فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وآخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فقد رأيت عبارة ابن خلدون التى ذكرت فى الكلام على البارود وفيها يقول : —

فى عد آلات الحصار « وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة فى البارود الخ » فقد استظهر « دوزى » فى معجمه كما نقل عنه الأستاذ أحمد تيمور باشا[1] أن المراد بالهندام هنا المدفع فإن صح ما ظهر له يكن الشرقيون قـــد استعملوا المدافع فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

على أن عبارات مؤرخى هذه العصور قد اضطربت فى استعمال كلمة المدفع فتارة يطلقونها على الآلة القاذفة وتارة يسمون بها الكرات المقذونة المدفوعة كما ترى ذلك فى كثير من المواضع فى تاريخ ابن إياس ، فقد أكثر من ذكرها بمعنى المقذوف ، وذكرها بمعنى الآلة القاذفة فى موضعين من كتابه[2] فقال « وركب على سورها – يعنى دمشق — المدافع من كل جانب » وجاء فى زجل للشيخ بدر الدين يقول فيه « المدافع ترمى سفرجل كبار » .

هذا وترى فى كلام المؤرخين ، عن فتح القسطنطينية ، أن المدافع التى استعملها السلطان محمد الفاتح إنما كانت من اختراع رجل مجرى ، على حين

(١) المقتطف : المجلد الخامس والأربعون صفحة ٥٨٩

(٢) تاريخ ابن إياس ج ٢ صفحة ٤ . والجزء الثالث صفحة ٦٦

كانت المدافع معروفة فى الشرق قبل ذلك بأكثر من قرن ونصف قرن ، ولعل هذا المجرى إنما صنع الكبار منها ، أو لم يكن بالشرق إذ ذاك من يحسن أن يصنعها .

وقد استعمل القوم كلمة « المكحلة » للبندقية المعروفة اليوم ، وللمدفع أيضاً لوجود الشبه بينهما وبين قارورة الكحل فى الصورة ، لا سيما أن البندقية كانت تحشى قديماً بالدك فكان منها كالمرود من المكحلة . وقد بقيت هذه التسمية معروفة إلى اليوم عند المغاربة فإنهم يسمون المدفع بالمكحلة الصغيرة[1] وقد ورد فى ابن إياس وغيره ذكر البندقية بهذا الاسم ، « وذكر الكَفِّيَّة » لما يعرف بالطبنجة .

على أن يد العناية قد حفظت لنا من عوادى الدهر بعضا من كتاب عن المدافع اسمه كتاب « العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بآلات الحروب والمدافع » لإبراهيم بن أحمد بن غانم الأندلسى المعجام الرياش ، صور الأستاذ زكى باشا منه عدة لوحات مودعة بالمكتبة المصرية ، ضمن الكتب التى جاء بها من أوروبا . وعدة تلك اللوحات ٣٦ لوحة منها نحو ١٦ مكررة ، واللوحة المعطاة رقم (١) هى المعطاة رقم (٣٦) ولم أظفر فيها بأول الكتاب ، وآخر باب فى هذه اللوحات هو الباب الثلاثون فى الرمى على الست نقط للربع « أى ربع الدائرة » .

وقد نقل المؤلف عن غيره من المؤلفين الذين سبقوه فقال فى لوحة (١) عند الكلام على قوانين النسبة بين ثقل المدفع وثقل الكرة التى يرميها ما نصه « وقد ذكر واحد من المؤلفين المعتبرين الخ » فدل عن أن للقوم آثاراً جليلة فى المدافع من العلم والعمل بها ، وأن ليس كتابه هذا بأولها ولا أوحدها .

وقد ذكر أن من المدافع مدافع كاملة وأنصاف مدافع وأرباع مدافع ، وأن بعضها للحصار ويسمى عندهم :

---

(١) — المقتطف ، مجلد ٤٥ . ص ٥٨٨ ، ٥٩٠ — وفى لوحة ١٠٠ من كتاب الأنيق صورة مكحلة معمرة وقوس الرمى فيها مدرج واضح لبيان تحديد المرمى لإصابة الهدف .

المهراس :

يرمى به وراء الأسوار كور تصعد بقوة البارود إلى العلو ثم تنزل بالثقل الكبير تطلب المركز ، وكور تنفجر إذا صعدت فى الهواء تمطر الحجارة على المحصورين .
وشفع ذلك بالصور المبينة له، ففى لوحة (٤) صورة مهراس وكور وصفة سقوطها على الحصن رسما متقنا بديعا .

وذكر نوعا آخر يشبه كثيراً :

المدافع الضخمة

وهى مدافع يعرف الواحد منها بالمدفع « البطرخى »[1] ويتخذ لدك القباب والأبواب الحديدية وهدم الأسوار العظيمة، ورميته قنطار بارود والقذيفة الواحدة منه تكفى لهدم سور عرضه ثمانية أقدام .

ويكون على هيئة الناقوس واسع فى فمه ويضيق كلما نزل إلى الخزانة ، وكانت تتخذ له دعائم تثبت فى الأرض ويوضع فوقها مربوطا بها لئلا يرجع إلى الوراء إذا ضرب . وقد وصف المؤلف هذا الكرسى وتثبيته فى الأرض وربط المدفع به فى لوحة (٦) من كتابه العز والمنافع .

ووصف الصناعة وتذويب الحديد وتجربة المدافع الجديدة وطريق إصلاح المدافع التى تتعطل فى الميدان ونكتفى بهذا منتقلين إلى الكلام على :

القدور « القنابل »

القنابل جمع القنبلة وهى الكرة التى يقذفها المدفع . كلمة لهج بها أهل عصرنا وليست لذلك المعنى فى اللغة ولا ورد ذكرها كذلك فى التاريخ ، ولكنها تركية أخذناها عن الترك الذين أخذوها عن الفرس ، لأن القنبلة فى اللغة بالفتح الطائفة

---

(١) لوحة ٥ من كتاب العز والمنافع ، ويلاحظ ن الخط ردىء والحروف غير واضحة ولذا لا أبوء بعهدة ضبط هذا الإسم ولكن هكذا قرأته قدر ما استطعت .

من الناس ومن الخيل وجمعها قنابل ، والقُـنبلة بالضم مصيدة لطير يصطادالعصافير ويعرف بالنُّـهَـس كصرد .

والمؤرخون قد سموا ما يقذفه المنجنيق بالقدور لأنها كانت تتخذ على مثالها ، وسمى صاحب كتاب العز والمنافع مقذوفات المدفع بالـكُور للشبه بينهما أيضا إلا أن الجبرتى[1] :

استعمل كلمة القنابر لمقذوفات المدافع وأوردها صاحب سلك الدرر فى تراجم أعيان القرن الثانى عشر فى ترجمة محمد بك أبى الذهب « قنبر » وهى محرفة عن « قومبرة » وهى محرفة عن « خمبرة » بالفارسية وهى فى اللغة اسم لقذيفة المدفع وعن التركية أخذت إلى العربية وصارت هكذا قنبلة[2] .

وإليك شيئا عن القدور التى كانت تقذفها المنجنيقات ، ونستميحك عذرا فى استعمال كلمة القنابل إما تعريبا عن التركية ، وإما استعارة من الاستعمال العربى ، فالقنبلة المصيدة وما أقرب الشبه بينها وبين تلك المهلـكات التى تصيد الأرواح ، فمن هذه القنابل ما يشبه أن يكون مكان :

قنابل شرابل :

لأنها كانت تحرق وتقشر الجلد عن اللحم ، وكانوا يصنعونها من قدر فخار مملوء بمواد من نفط وغيره ، ذكرها صاحب كتاب الأنيق على نسب خاصة ورسم القدر نفسها فى لوحة .

---

(١) قلت : وكذا ورد فى الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ما نصه : « لـكنهم لما سمعوا رعد المدافع والمهاريس ، ورأوا ارتفاع القنابر فى الجو انهزموا ... الخ » والحديث عن حرب المنصور السعدى المغربى مع ملوك السودان من مجاوريه — وهذه العبارة التى نقلتها واردة فى تعليق الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٣١٦ نقلا عن الاستقصا المذكور .

(٢) مقال الأستاذ تيمور باشا فى المجلد الخامس والأربعين من مجلة المقتطف صفحة ٥٩٠ .

قنابل الغازات الخانقة :

وتسمى عندهم القدر المنتن للمخاسفة ، وتتخذ من قدر تملأ بأفيون ، وزرنيخ ، وبنج أزرق ، ومواد أخرى ذكرت على نسبتها وصورت القدر فى لوحة ٩٠،٩١ من كتاب الأنيق ، وسنذكر من هذه القنابل نوعا آخر يستعمل فى البحر عند الكلام على البحرية .

ومن أرسال الغازات الخانقة ما يكون بتدخين الكبريت والجيف على مهب الريح حتى يفسد الهواء على العدو(١) ويشبه :

قنابل الميكروبات :

التى لم تستعمل بعد ، القدر المعروفة عندهم بقدر المركب ، وتجمل من قدر من الفخار أكبر ما يكون وتوضع فيها حيات عتاق وعقارب وتختم رأسها وترسل على المقاتلين فكل من لسعته قتلته ، وأكثر ما تفعل تلك إذا أرسلت فى السفن لضيق المكان(٢) :

ومنها :

القنابل المضيئة :

وتتخذ من كبريت رومى أسود وصمغ ودهن بلسان ونورة ومواد أخرى ، ثم تبندق وتجفف ، فاذا أريد الرمى بها تمسح بنفط مصمد مطبوخ ويذر عليها كبريت مسحوق ، فإذا رمى بها عن قوس صلبة رمية شديدة اشتعلت نارا بوقوعها فى الهواء ، سواء فى ليل أو نهار(٣) .

---

(١) آثار الأول صفحة ١٩١ .

(٢) ورأيت فى شفاء الغليل للخفاجى ص ١٥١ استعمالها فى عهد عمر ، فقد قال فى هذه الصفحة ما عبارته « لما صعب أخذ شهرزور على سرايا عمر دلوهم على مكان فيه عقارب ، فملأوا منها أجربة ، ورموها على المنجنيق ، فضج أهلها وسلموها » .

(٣) الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية لابن منكلى صفحة ٢٩ .

قنابل النحاس :

وكانت تسكب على مثال حجر المنجنيق مجوفة وتملأ بدواء واحد . ومواد أخرى ذكرها على أقدارها الزردكاش صاحب الأنيق. ومن قنابل النحاس مايكون على شكل صناديق تعرف بصناديق الخاسفة وهو صندوق فى جنبه مزراق نحاس، وله أنابيب تنفذ إليه ، ويملأ الصندوق نفطا ، ويعمل على رأس المزراق وردة لباد ويشملها ، ثم يرسل الصندوق ، فيشتعل منها وينفجر .

قنابل الحجر :

وتتخذ من حجر مدور ويجعل فيه أربعة خزائن ، وتملأ الخزائن بلزاق مكون من نفط ، ومصطكى ، وغيرها الخ ما ذكره على أقدار محدودة صاحب كتاب الأنيق .

قنابل الزجاج :

وذلك باتخاذ قوارير تملأ من دهن يتركب من نفط مصمد وهو الأبيض أو كبريت وكندس الخ ثم يرمى المنجنيق هذه القوارير فإذا وقعت بمكان لطخته ، ثم يؤتى بعد ذلك بحجر عليه مشاقة مُروّاة من النفط المطبوخ ،وتشعل فيه النار ثم يرمى على المكان الذى أصابته القوارير فيلتهب ويفور ولا ينطفىء أبداً حتى يصير رميا[1] ومن تلك القوارير :

قنابل اليد :

وهى قنابل من الزجاج مدورة ذات عرى تحشى بالنفط والصبر وبزر القرطم المقشور الخ ويجعل لها سلسلة ويشعلها الضارب ثم يهوى بها فيكسرها ، وتجد

---

(١) الأحكام الملوكية لابن منكلى خط بالخزانة التيمورية صفحة ٢٩ .

صورتها فى لوحة (١٠٣) من كتاب الأنيق . ومنها ما يكون مستطيلا ، وبعضها يعرف بقوارير النفط ، وهى زجاجات تملأ نفطا طيارا وتسد ويرمى بها الرجل فيصير شعلة نار .

ومما ينتبه إليه أن تلك « القنابل اليدوية » قد استعملت فى العصر الثانى بيد الرجالة فى القتال البرى، استعملها ياقوت المناوىء لعماد الدولة بن بويه فى حربه له فقدم أمام أصحابه رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط[1] .

ومن بديع ما يُكاد به استعمال النفط فى البر استعمال :

الألغام :

وقد فعل ذلك أحد القواد على عهد الخليفة « المعتز العباسى » فقد أمر بوضعه على الأرض ، ثم أمر أصحابه بالاستطراد للعدو ففعلوا وظن العدو أنهم انهزموا فتبعهم، فلما توسط رجاله النفط أمر القائد بالنار . فألقيت فيه — وهو يلتهب وإن لم يماس النار كما ذكر — فالتهب تحت أقدامهم . وجعلت النار تحرقهم حتى انهزموا[2] .

ومن الأسلحة التى استعملت للدفع والمنع معا :

الحسك « الأسلاك الشائكة » :

وهو حديد مدبب منه المثلث ذو الأربع الأصابع فكيفما وقع على الأرض كان منه سن مرتفعة تعطب به الخيل وغيرها[3] ومنه المسدس ويكون له ثلاث شوكات قائمة[4] ، وكان ينثر حول الخنادق لتحصينها ، وتارة يجعل وراء الجيش منعاً للهزيمة إذ يحول بين الجند والفرار، وقد استعمله الفرس لذلك فى قتالهم المسلمين فى وقعة نهاوند، وأحسبهم أخذوه عنهم إذ ذاك ، وظل مستعملا حتى العصر

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٨٧ .
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٠ .
(٣) آثار الأول ص ١٩٤ .
(٤) الأحكام الملوكية ص ٢٧ .

الثالث وكانت المغاربة تسميه « حمص الأمير » وتؤدى عمله الآن الأسلاك الشائكة الحادة المكهربة التي كانت تستعمل في الحرب الأوروبية الأخيرة ، وبعد تعداد تلك المهلكات نخلص منها إلى ذكر :

أدوات الوقاية

الدروع :

وهى لبوس الحديد يتقى به الطعان ، وتتخذ من الزرد المنسوج حلقا ، فتكون منها المضاعفة التي تنسج حلقتين حلقتين ، والمفردة التي تنسج حلقة حلقة ، ومنها الطويلة السابغة ، ومنها القصيرة دون تلك :

ويتخذ منها زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت الرأس ويسمى :

المغفر :

و « الغفارة » وتغطى الوجه كله فلا يظهر منه إلا العينان . ويدلى بعضه وراء الظهر مشدوداً بالبيضة ويسمى رفرف الدرع . وتمتد على الأذرع حتى فضول الأنامل ، وتارة تكون أكمامها إلى المرافق ، وتارة تكون فوقها ، ويؤتى فوق المغفر بصفائح من الحديد تعرض ثم تدار على الرأس ، وتسمى :

البيضة :

وتتخذ مثل هذه الصفائح على الساعد، وتسمى الطراق(١) .

وقد اتخذت الدروع من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض وكانت تعرف في مصر « بالقرقلات » حوالى القرن الثامن الهجرى(٢) .

---

(١) المخصص لابن سيده : ج ٦ .
(٢) صبح الأعشى : الجزء الثانى صفحة ٣٦ .

وقد تفننوا فى إتقان هذه الأدوات حتى كانوا يتخذون بمصر دروعا وخوذا لا تؤثر فيها السهام فيطلونها بمواد مؤلفة من الغراء وبرادة القرون ومسحوق الرخام الخ[1] فلا يعمل فيها النشاب .

ومن بديع طرق الوقاية اتخاذ :

ثياب لا تحترق :

وهى ثياب تطلى من الداخل والخارج بمواد متخذة من النشادر والشب المصرى والشب اليمانى ومواد أخرى فاذا ألهبت النار فى الثوب لا تزال مشتعلة وأنت تنضح عليه من النفط ساعة بعد ساعة يومك أجمع ،فانه لا يصل إلى داخل الثوب شىء[2] وكان الرجال يلبسون هذه الثياب لوقايتهم من النار .

ولا يهولنك ما ذكرت فتتسرب إليك الظنة أنها أوصاف نظرية، لأن أولئك الذين حدثت عنهم وأحلتك على كتبهم إما صناع أسلحة يباشرون بأنفسهم ما يصفون بأقلامهم كالزردكاش صاحب كتاب الأنيق أو مقدمو أجناد يعانون استخدام هذه الآلات والاشراف على عملها كمحمد بن منكلى صاحب الأحكام الملوكية ، وليس لهم كبير معرفة بالكتابة وممارسة التأليف كما ترى ذلك فى عامية أسلوبهم وسذاجته وإطلاق الكلمات الاصطلاحية غير العربية وفشو اللحن فيما كتبوا ، مما يدل على أنهم ليسوا علماء نظريين كلاميين .

التراس :

واحدها الترس أو الدرقة أو المجن ، وتتخذ على أشكال كثيرة فنها « المقتب » المنحنى الأطراف يتقى به النشاب والحجارة والسيف دون الرمح لأنه متى طعن ثبت الرمح فيه .

---

(١) الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر لابن منكلى صفحة ٣١ .
(٢) المصدر نفسه صفحة ٢٩ .

ومنها « المستطيل » يتقى به النشاب لأن رأسه يستر راس الفارس ، وطوله يقيه فينظر باحدى عينيه ولا يكشف رأسه . ومنها « المسطح » وتتقى به الرماح .

وتتخذ التراس تارة من الجلد ولها حلقة من قرن أو حديد ، وهى أبسط أنواعها وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيدان مضموم بعضها إلى بعض بخيط القطن ونحوه .

ومما يتخذ للوقاية : الستور ، والطوارق ، التى تجعل على الدبابات وقد مر ذكرها .

سمة الأسلحة وتسميتها

كانوا ينقشون على السيوف والتراس أسماء المقدمين من القواد كما ترى ذلك فى كثير من الأماكن فى تاريخ ابن الأثير .

وكان للدول علامات مختلفة تنقش على السلاح وأدوات الدولة كما نقش أبوعبد الله الشيعى أيام بناء الدولة العلوية بالمغرب على السلاح « عدة فى سبيل الله » ووسم الخيل على أفخاذها « الملك لله » .

وكانوا يسمون الأسلحة كالسيوف ، والدروع ، والقسى ، والمجانيق بأسماء المناسبات ، من معدنها أو حدة رمايتها ، أونقاوتها ، أو لصفة فيها ، كما ترى ذلك كثيرا فى ثنايا التاريخ ؛ ولا حاجة بنا إلى الإطالة بسرد شىء منه ، فقد رأيت تسميتهم المنجنيق المعروفة « بالعروس » أيام الحجاج كما ذكر .

وكانوا يحتفظون بكرائم الأسلحة ذات القيمة الأثرية ، وهذا سيف عمرو ابن معد يكرب الزبيدى الذى كان يسمى « الصمصامة » ظل الخلفاء يتوارثونه حتى عهد الخليفة الواثق العباسى .

وما تلك إلا عناية بآثار السلف الصالح لابد منها فى نفوس الأمم الحية ،وتلك العناية التى أهملناها حتى انقطعت الصلة بيننا وبين سلفنا فجهلنا حضارتهم وأصبحنا نرى وصفها غريبا مدهشا ، فاللهم هيىء لنا من أمرنا رشدا .

الأعلام

الألوية — الرايات

اللواء :

هو العلم الذى يحمل فى الحرب يعرف به موضع أمير الجيش ، وقد يحمله أمير الجيش ؛ وقد يعطيه غيره ، وتارة يحمل لكل فريق من الجيش كأهل كل حى أو حلف أو قبيلة ، أو لكل قسم من الجيش كالميمنة والميسرة والقلب الخ لواء .

وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادف اللواء والراية ، وعن ابن اسحق وابن سعد أن اسم الراية انما حدث بعد خيبر[1] .

وقد اتخذ الرسول عليه السلام اللواء فى مغازيه ، كما كان الحال قبله عند العرب ؛ وكان لواؤه فى غزوة « وَدّان» أولى غزواته ؛ أبيض اللون ، وكذلك كان لواؤه أبيض فى غزوات « بدر الأولى » وغزوة « بنى قينقاع » و « بُواط » و « بدر الكبرى » إلا أنه كان أمامه فى بدر الكبرى رايتان سوداوان كانت إحداها من مرط لعائشة رضى الله عنها ؛ وكان يقال لها « العُقاب » فالرسول صلى الله عليه وسلم قد اتخذ الرايات بيضاء ، وسوداء ؛ والأولى أكثر ، وما كان اللون إذ ذاك رمزاً ذا معنى .

ومضى بنو أمية بعد ذلك وراياتهم بيضاء وشعارهم البياض ، حتى جاء العباسيون بعدهم مسودين ، قد اتخذوا السواد لباساً وشعاراً فى الأعلام، حداداً على صرعى آل البيت ، الذين قضوا بيد الأمويين وسيوفهم ، وقد بعث الإمام لأبى مسلم الخراسانى داعيتهم رايتين : إحداها تسمى « السحاب » تفاؤلا ،

---

(١) السيرة الحلبية . الجزء الثانى ، صفحة ١٢٥ .

بأن تطبق الأرض كما يطبقها السحاب ؛ وقد عقدها أبو مسلم على رمح طوله عشرة أذرع ؛ والأخرى تسمى « الظل » تفاؤلا بألا تخلو الأرض من إمام عباسى ، آخر الدهر ، كما لا تخلو من الظل ؛ وقد عقدت على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً[1] .

على أن العباسيين بعد ، لم يقتصروا على السواد فى ألويتهم ، فإن « المتوكل » لما عقد البيعة لبنيه الثلاثة « المنتصر . والمعتز . والمؤيد » عقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود ، وهو لواء العهد ؛ والآخر أبيض وهو لواء العمل[2] .

ثم كانت دول الأطراف ، فاختلفت الرايات باختلاف البلاد والدول؛ فكانت الدولة الفاطمية بمصر، وأعلامها خضراء ، وشعارها الخضرة[3] ثم كانت الطولونية وما بعدها من دول الأتراك فاتخذت الأعلام صفراء ، فكان منها الحرير الأصفر المطرز بالذهب وعليها ألقاب السلطان وتعرف « بالعصابة » وتحمل فى ركبة السلطان ؛ ومنها راية عظيمة على رأسها خصلة من الشعر . تسمى « الجاليش » ؛ ورايات صفر صغار تسمى «السناجق» وقد تقدم تفسير كلمة «سنجق» فى الكلام على الرماح[4] .

* * *

وكانت الأعلام الإسلامية بالهند أيام الدولة التغلقية حمراء اللون مذهبة[5] وهكذا كان اختلاف الرايات باختلاف البلاد .

وكانت الألوية أيام العصر الأول إذ العصبية لا تزال مستحكمة فى النفوس تعقد للقبائل والبطون والأحلاف والأخماس ، فكان للمهاجرين راية وللأنصار راية ، وكذا أمر أبو بكر فى فتوح الشام أن يعقد لكل قبيلة لواء يكون فيها

---

(١) ، (٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٣ ، ج ٧ ص ١٦ .
(٣) الحضارة الاسلامية لزكى باشا ص ٧ .
(٤) صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ (٥) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٨٤

وهكذا ، ولما كان بعد ذلك جعلت الأعلام على أقسام الجيش أخماسه أو فرقه ، كما قسم على بن عيسى جنده فى حرب طاهر بن الحسين قائد المأمون إلى مئات جعل على كل مائة منها راية[1] .

* * *

وقد كان عقد الألوية علامة التولية كما رأيت فى بيعة المتوكل لبنيه وعقده الألوية لهم ، وكما كان يفعل ذلك فى تولية القائد إمرة جيش خارج للقتال ، وكانت أعلام التولية تلك تتجدد بتجددها ، فيكتب للقائد على لوائه ما لا يكتب على لواء غيره ، كما اتخذ المأمون « لعبد الله بن طاهر » لما ولاه محاربة « نصر بن شبث » لواء كتب عليه بصفرة « يامنصور » زيادة على ما يكتب في الأعلام عادة .

راية الأمان :

ورد ذكر راية الأمان فى خبر المهالبة ، لابن الأثير[2] ، ولكنه لم يصفها ولا ذكر لونها ، لكن قال الطبرى فى وصف قتال السفن « وكانوا وقت الحرب إذا استأمنت شذاة من شذوات العدو كان أهلها ينكسون علماً أبيض يكون معهم »[3]. فرايات الأمان كانت بيضاء كما هى اليوم ، ولكن قد يكون تنكيسها علامة الاستئمان أما اليوم فذلك يكون برفعها .

على أنهم كانوا قد يطلبون الأمان بغير الرايات فيرفعون على رماحهم شيئاً ذا حرمة فيمتنع القوم عن الرماية ، كما رفع «معاوية» المصاحف على الرماح ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٧ (٢) المصدر نفسه

(٣) وفى ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ طبعة بولاق فى ترجمة جوهر القائد من خبر دخوله مصر ما نصه : « فعاد إليه بإمامهم وحضر رسوله — ومعه بند أبيض وطاف على الناس يؤمنهم ويمنع من النهب » .

وكما وضع أحد أصحاب طاهر بيعة المأمون على الرمح يذكر بها على بن عيسى ابن ماهان وكان هو الذى أخذها عليهم .

التخاطب بالرايات :

سبق لنا ذكر استعمال الرايات فى إصدار الأوامر بدل النداء ، وسيأتى شرح ذلك فى البحرية بما هو أوسع وأعجب إن شاء الله .

الهلال فى الرايات :

لعل أول ما ورد من ظهور الهلال شعاراً فى الرايات الإسلامية ما ذكر من وضع الفاطميين الهلال على الرماح ، كما نقل ذلك عن المقريزى الأستاذ أحمد زكى باشا فى محاضراته فى الحضارة الإسلامية، ولم يعثر على أصل لذلك قبل هذا العهد .

ثم اتخذه العثمانيون شعارهم الدولى ، ويدعى بعض مؤرخى الفرنج أنهم نقلوا ذلك عن البيزنطيين، وكانوا قد اتخذوا القمر شعاراً لهم إذ كانوا يحاصرون بلداً فلما بدا القمر كشف لهم عن موضع تمكنوا منه أن يتسوروا البلد فانتصروا واتخذوا القمر شعاراً . وبعيد أن يتخذ الأتراك المتمسكون بجنسهم ودينهم جد التمسك شعار دولة تخالفهم جنساً وديناً بله إنها مغلوبة لهم ومستعبدة . هذا وشعار البيزنطيين الصليب منذ عهد قسطنطين مؤسس القسطنطينية ، فهو أول من عمل شكل الصليب على أعلامه وبنوده ، فكان ، هذا ابتداء رفع الصليب وظهوره فى الناس (١) وأقرب ما يرى أن الأتراك قد اتخذوا الهلال؟.. وماذا فيه من مقابلة الصليب، هذه أمور خليقة بالتمحيص التاريخى لا الترجيح العقلى ، فليس فى الهلال معنى دينى ولا رمز للتقديس فى الإسلام إلا أن يكون انشقاقه معجزة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن ذلك كما سبق لا يكفى مقنعاً فى بحث تاريخى ، ولم أر فى الموضوع شيئاً وأرجو أن يوفق الله إلى البحث ويعين عليه حتى تتم هذه القطعة فى التاريخ خدمة لتلك الحضارة الإسلامية المهضومة كأصلها..

(١) خطط المقريزى الجزء الرابع صفحة ٣٨٣

أزياء الجند

نهض المسلمون نصرة للرسول عليه السلام فكان كل من يطيق حمل السلاح جنديا لا تميزه شارة ولا لباس ، وظلوا كذلك إبان الفتوح الأولى ، إذ القوم يبتغون ثواب الله لا يستأجرون ولا يساومون ، فلم تتغير أزياؤهم البدوية . ولباسهم الساذج الفضفاض لا يعوق الجسم ، ولا يحول دون حركة القتال : خفاف بسيطة ، وسراويل فوقها البرانس وجباب الصوف[1] وأكثر ما تكون الثياب بيضاء تفريقاً لأشعة الحرارة الجوية ، لا يرمون إلى اتخاذ اللون شعاراً ولا أمارة ، وكان الجنود فى العصر الأول إذا غزوا أطالوا الأظفار وقصوا الشعور كما ترى ذلك فى وصية القائد قتيبة بن مسلم[2] .

وغبر الجند على ذلك حتى انبسط العمران ، وسكنوا مصر والعراق والشام ورأوا مختلف المنسوجات ومتنوع الثياب ، فإذ ذاك امتازت ملابس الجند وعنى باتخاذ الألوان شعارا فكان البياض للأمويين ، والسواد للعباسيين كما سبق ، فكانوا يتخذون الطيالس السود بمكان الثياب الرسمية « عندنا » لشهود الاجتماعات والأعياد والمثول بين يدى الخليفة .

وخالفها الفاطميون إلى الخضرة شعار العلويين ، حتى قام صلاح الدين الأيوبى بمصر ، فجعل السواد شعاره اقتداء بالخلفاء العباسيين ، وكانت خلعة الخليفة العباسى عليه جبة سوداء وطوق ذهب[3] .

وهكذا اختلفت الملابس فى الدول باختلاف الشعار وتباين الأقاليم والأجواء ،

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ، على هامش ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ و ١٨٧ وفتوح البلدان ص ٢٢٢ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ض ٢٣

(٣) خطط المقريزى ج ٣ ص ١٧٤ .

وتفاوتت بتفاوت مراتب الأجناد ودرجاتهم ، فنى الدولة التركية بمصر بعد صلاح الدين كانت الأقبية تتخذ من الأبيض والأحمر المشجر ، والأزرق .

ولو رحنا نفصل أصناف الملابس وأسماءها وأوضاعها فى مختلف البلاد على تغير العصور لتكلفنا من الأمر شططا لا نجـــد من موارد التاريخ عليه معيناً .

وإن أصبنا تلك المصادر فما أقل غناء ذلك ، وإن كان الموضوع خليقاً ببحث رشيق فكه ، لغير ما نحن فيه ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله فنذكر شيئاً ممـا امتاز به الأجناد فى لباسهم مما يشبه ملابس الجند فى أيامنا ، فمن ذلك بمصر : اتخاذ « الجاروق » وهو جلد طرى يلبس لأجل الخوض فى المـاء أشبه برقاب الأحذية الطويلة التى يلبسها الأجناد الراكبون الآن[1] ، ومن ذلك اتخاذ :

المهماز :

على الأخفاف كما هو اليوم ، واتخاذ الحوائص المرصعة حتى كانت لها بمصر سوق تعرف بسوق الحوائصيين كما ترى ذلك فى خطط المقريزى . ومنها اتخاذ « الكلبتان » بأبزيم وحلق كأحزمة الجنود اليوم .

وأما لباس الرأس فكان تارة « الكلوتات » المختلفة الألوان بغير عمائم وتارة بعمائم صغار وغير ذلك مما فصله المقريزى فى مصر على اختلاف الدول والأزمان فى عدة مواضع من خططه أكثرها فى الجزء الثالث بالصفحات ١٦٠ وما بعدها و٣٥٠ وما بعدها ، مما يرجع إليه عند الحاجة .

---

(١) هداية الرأى « خط » بدار الكتب المصرية .

أعطيات الجند

المرتبات

كان الجيش على عهد الرسول صلوات الله عليه وسلامه لا يتجاوز بضع مئات ، ومغنمه ما يصيب من قتال قوم على فاقة وشظف ، فيتولى الرسول عليه السلام قسمته بينهم أول أول ، وقد كان آخر ما أتى به صلى الله عليه وسلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين فأقام حتى أمضاه ، وكان أبو بكر رضى الله عنه كذلك يأتيه المال فيقسمه على قدره بين المسلمين كما يقع ؛ والقادرون كلهم جنود إذ ذاك .

فلما كان عهد عمر رضوان الله عليه وكثر المال وفاض فكروا فى وضع طريق منظمة للعطاء ؛ وذلك سنة (١٥) من الهجرة ، وقبل سنة (٢٠) منها إذ توالت الفتوح وكثرت الأموال حتى صعد « عمر » المنبر فقال « أيها الناس قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كيلا . وإن شئتم عددنا لكم عدا » فأشير عليه بتدوين الديوان كما تفعل الأعاجم ، فاستشار المسلمين ، فقال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه « تقسم كل سنة ما اجتمع عندك من المال ولا تمسك منه شيئا » ؛ وقال عثمان رضى الله عنه « أرى مالا كثيراً يسع الناس فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ومن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر » ، وقال خالد بن الوليد رضى الله عنه « قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا ؛ وجندوا جنودا ، فدون ديوانا وجند جنودا » فأخذ بقوله ودعا « عقيل بن أبى طالب » ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وكانوا كتاب قريش فقال لهم اكتبوا الناس على منازلهم فبدؤا ببنى هاشم وكتبوهم ثم أتبعوهم أولاد « أبى بكر » وقومه ثم « عمر » وقومه ؛ وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ، ثم رفعوا ذلك إلى عمر رضى الله عنه ، فلما نظر فيه قال لا ، ولكن ابدؤا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله ؛ فشكره العباس رضى الله عنه على ذلك ؛ وقال « وصلت رحمك » ففرض للعباس

وبدأ به ، فقيل فرض له على خمسة وعشرين ألفا ؛ وقال الزهرى على اثنى عشر ألفا ، وفرض للقوم كما يأتى :

الرجال

أهل بدر	٥٠٠٠	درهم
ما بعد بدر إلى الحديبية	٤٠٠٠	»
» الحديبية إلى آخر قتال المرتدين	٣٠٠٠	»
أهل القادسية وأصحاب اليرموك	٢٠٠٠	»
» البلاد النازحون	٢٥٠٠	»
الروادف بعد فتح القادسية واليرموك	٣٠٠	» عربهم وعجمهم قويهم وضعيفهم
آخر من فرض له أهل هجر	٢٠٠	»

النساء

نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٠,٠٠٠	درهم وميز عائشة رضى الله عنها بألفين فأبت ، فقال لفضل منزلتك عند رسول الله فاذا أخذتها فشأنك
» أهل بدر إلى الحديبية	٤٠٠	»
» من بعد ذلك إلى الأيام قبل القادسية	٣٠٠	»
» للقادسية	٢٠٠	»

ثم سوى بين النساء بعد ذلك .

الصبيان

من أهل بدر وغيرهم	١٠٠	درهم
فإذا ترعرعوا بلغ بهم	٢٠٠	» فإذا بلغ زاده على منزلته ، وجعل

لكل نفس من أهل الفىء فى رمضان درهما كل يوم ؛ ولأمهات المؤمنين درهمين فقيل له : لو وضعت لهم به طعاما فجمعتهم عليه، فقال أشبعوا الناس فى بيوتهم[1].

وجعل عمر رضى الله عنه الناس أعشارا ؛ فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف كل عريف على عشرة ؛ وجعل رزق الخيل على أعرافها ؛ فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة والبصرة فغيرت العرفاء والأعشار ، وجعلت أسباعا ، وكان العطاء يدفع إلى أمراء الأسباع ، وأصحاب الرايات فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعونه إلى أهله فى دورهم ، ومات عمر رضى الله عنه والأمر على ذلك .

فلما استخلف عثمان رضى الله عنه عام (٢٤) زاد الناس « ١٠٠ » وكان أول من زاد رزق أهل الأمصار ، وزاد على فرض رمضان وضع طعام للناس وقال : هو للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد ، ولابن السبيل ، وللمعترين بالناس فى رمضان فاقتدى به الخلفاء من بعده ، ثم قامت الدول وتميزت طبقة الجند واختصوا بالعطاء فلما كانت الأموية احتاج معاوية إلى استصناع الرجال فزاد فى العطاء فجعل لكل رجل « ١٠٠٠ » درهم ، وجعل اليمنية فرقة قائمة بنفسها ، وعدتهم ألف فارس وفرض لهم عطاء مضاعفا ، ثم ندم على تمييزهم لبطرهم فسواهم بالقيسية وظل العطاء على ذلك إلى أيام عبد الملك ، فلما جاء الوليد زاد فى العطاء عشرة دراهم يوم خلافته ؛ وفى أواخر الأمويين انحط العطاء إلى نحو ٥٠٠ درهم .

* * *

فلما كانت العباسية جعل العطاء مشاهرة ، وأعطى السفاح للراجل ٨٠ درهما فى الشهر ، وللفارس ضعف هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه ، ويظهر أن العطاء قد تناقص بعد ذلك فقد كان أيام المأمون (٢٠) درهما للراجل فى الشهر ، و٤٠ درهما للفارس ؛ لأن الدولة وجدت من الأعاجم الكثيرين من يرضى بزهيد الأجر ؛

---

(١) المقريزى ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها ، والأحكام السلطانية للماوردى ص ١٧٥ — وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٥٥ وما بعدها .

واتجهت رغبة الخلفاء إليهم ونفروا من العرب لفطرستهم وعصبيتهم التي لا تدعهم يسطون من الطاعة والامتثال مايعطى الأعاجم ، ولذا ترى المعتصم يكتب إلى « كندر ابن نصر الصفدى » أمير مصر يأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب ، وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك .

وشاع فى الجند حتى أوائل العباسية طلب العطاء مقدماً عند ولاية خليفة جديد ، فإنه لما مات المهدى « بماسبذان » كان الرشيد معه ، فأراد أن يكتم خبر موته ، ويرجع إلى بغداد فيواريه بها ، فقال له يحيى بن خالد : « لا آمن إذا علم الجند أن يتعلقوا بمحمله ، ويقولوا : لا نخلى حتى نعطى لثلاث سنين أو أكثر ، أو يتحكموا أو يشتطوا ولـكنى أرى أن يوارى رحمه الله هنا ؛ وتوجه نصيرا إلى أمير المؤمنين الهادى بالخاتم والقضيب ، والتعزية ، والتهنئة فإن الناس لا ينـكرون خروجه « أى نصير » إذ هو على بريد الناحية ، وأن تأمر لمن تبعك من الجند بجوائز مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالرجوع فلا تـكون لهم همة سوى أهلهم » ؛ ففعل ذلك . فلما قبض الجند الدراهم تنادوا ؛ « بغداد . بغداد .. » ؛ وأسرعوا إليها ولـكنهم ثاروا حينما علموا خبر «المهدى» وطلبوا الأرزاق ؛ وجمع الربيع المال فأعطاهم لسنتين فسكتوا[١] ، ولما ولى « الأمين » أعطى الجند أرزاق أربعة وعشرين شهرا[٢] .

وهكذا كان ذلك والأمر مستوسق فلما بدأت الدولة فى الانحدار والارتباك تأخرت الأعطيات شهورا وسنوات فـكان يفوز بالخلافة من يضع العطاء للجند ؛ ويخلع الخليفة لعجزه عن تقديم الأعطيات .

* * *

ظل العطاء نقدا أيام الدول العربية كالأموية ، والعباسية ، والفاطمية ، فلما كانت دول الأعاجم غيروا هذا الرسم وجعلوا المرتبات إقطاعات من الأرض تمطى للأجناد ، وقيل إن أول من عرف عنه فعل ذلك الوزير « نظام الملك أبو على

(١و٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٩ ، ٧٣ .

إبن الحسن بن علي بن اسحق بن العباس الطوسي » ، وزير إلب أرسلان السلجوق (٤٥٥ — ٤٦٥) هكذا نسب المقريزي له هذه الأوليّة ، ونسبها إليه جورجي زيدان ، لكن ذكر ابن الأثير(١) أن « معز الدولة بن بويه » شغب عليه جنده سنة ٣٣٤ هـ ؛ وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم في مدة ذكرها لهم ؛ فاضطر إلى خبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها ، التي للسلطان وأصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين ،وزالت أيدى العمال ؛ وذلك كما رأيت أسبق من عهد نظام الملك بأكثر من قرن فلعل نظام الملك هو الذي جعل ذلك عاما ، وأبطل العطاء النقدي بتاتاً .

ومضت الدول بعده على تلك السنة باختلاف في نظامها ، فكانت أرض مصر في أواخر القرن السابع الهجري مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطاً يختص السلطان منها بأربعة قراريط ويختص الأجناد بعشرة قراريط ويختص الأمراء بعشرة .

ولما جاءت الدولة العثمانية كان جندها من طلاب الغنائم والأسلاب شأن البدو في كل واد ، ولما استتب لها الأمر ووضع علاء الدين نظام جنديتها كان فيها العطاء النقدي ، والإقطاع الأرضي ؛ ومع هذين فرق تعيش على الغنائم والأسلاب ؛ فالبيادة المنظمة كان عطاؤها أولا نقدياً ثم أقطعت ؛ وغير المنظمة لم يكن لها إقطاع ولا مرتب ؛ والخيالة كان منها أربع فرق مأجورة وهي :

١ — السباهيّة وكان لفظ السباهية يطلق على الخيالة عامة ويخص به أهم فرقها المنتظمة .

٢ — فرق السلاحدارية.

٣ — فرق العلوفه جي .

٤ — الغرباء .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٠.

وجعل علاء الدين من الخيالة فرقاً أخرى أقطعها الأرض كما فعل بالبيادة وأعفاهم من الضرائب على أراضيهم .

ومنها فرق غير نظامية ، لم تكن لها مرتبات ولا إقطاعات وإنما حياتهم من الغنائم ؛ ولذا كانوا رمز التوحش والهمجية ، وطلائع الدمار والفزع في قلوب الأوروبيين[1] .

وكانت أصغر إخاذة تمنح لجندى ممتاز تسمى « تياراً » ؛ وتتراوح مساحتها بين ٣٠٠ فدان ،و ٥٠٠ فدان ؛ وأما الإخاذات الكبرى المسماة « زيامت » فكانت ٥٠٠ فدان ، والتى أكبر من ذلك كانت تسمى « بكويات » ؛ والأكبر منها تسمى « بكاربكى » .

وكانت التيارات والزيامات تورث عن الميت ؛ فإن لم يكن له عقب ذكر أو كان فى سلوكه ما يؤاخذ عليه دفع الوالى إخاذته إلى رجل آخر بعد تصديق الباب العالى على ذلك ؛ وأما « البكويات » و « البكاربكيات » فكانت بادىء الأمر لا تورث ، ثم جرت العادة بتوريثها[2] .

ولما جاء السلطان سليمان القانونى أدخل التغيير على نظم الدولة الإدارية فكان فيما فعله أن قسم جيش الانكشارية إلى ثلاث فرق بحسب سنى خدمتهم.

وجعل راتب كل رجل فى الفرقة الأولى من ثلاثة قروش إلى سبعة قروش يومياً ، ومن الثانية من ٨ قروش إلى ٩ قروش يومياً ؛ والثالثة وهى المؤلفة ممن أصيبوا بعاهات دائمة جعل مرتب الواحد منهم من ٣٠ قرشاً إلى ١٢٠ قرشاً شهريا .

ولما انمحى النظام الإقطاعى فى أوروبا ، وأباد السلطان محمود الثانى فرق الانكشارية أمست جنود الدولة تتناول مرتبات نقدية .

ونذيل الكلام فى الأعطيات بكلمة فى نظام :

---

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين للأستاذ حسين لبيب ج ١ ص ١٣ .

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٨ .

(٣) تاريخ الدولة العلية البطل المرحوم محمد بك فريد ص ١٠٨ .

ديوان الجيش

« وزارة الحربية »

الديوان كلمة فارسية هى فى الأصل « ديوانه » أى مجانين، قالها كسرى حين رأى الـكتاب يحسبون مع أنفسهم ، فأطلقت عليهم وسمى بها موضعهم ، ثم حذفت الهاء لـكثرة الاستعمال تخفيفا ، أو « الديوان » اسم للشياطين بالفارسية سمى به الـكتاب لحذقهم واطلاعهم ، ثم سمى المحل باسم الحال فيه(١) .

ولقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبسط أساس لديوان الجيش ، لما فى حديث حذيفة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس فـكتبنا له ألفا وخمسمائة » ، ومن حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا وامرأتى حاجة قال ارجع فاحجج مع امرأتك » فـكان هذا أول أساس لديوان الجيش جاء بعده ما رتب عمر رضى الله عنه على يد كتاب قريش .

ثم كانت الدول ذات النظم والحضارة ، فاتخذت الجرائد للجند وأعطياتهم وما تدعو إليه حاجة الجيش ، وكانت كتابة الدواوين أولا فى دروج متفرقة حتى كان زمن العباسيين ، واستوزر السفاح أبا سلمة الخلال فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود ، وكتب فيها وترك الدروج ، إلى أن تصرف فى الأمور جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكى أيام الرشيد فاتخذ الـكاغد وتداوله الناس بعده .

وترتيب الجند فى أثبات الديوان يكون بترتيب القبائل والأجناس، فإن كانوا عرباً رتبوا بالقربى من رسول الله وهكذا ؛ وإن كانوا عجما رتبوا على ما يجمعهم. وهو إما أجناس ، كالترك والهند ، وإما بلاد كالديلم والجبل ، ثم تميز الترك أجناسا، والهند أجناسا ؛ وتميز الديلم بلدانا والجبل بلدانا ، ثم إن كانت لهم سابقة

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها.

فى الإسلام رتبوا عليها فى الديوان ، وإن لم تكن لهم سابقة رتبوا بالقرب من ولى الأمر ؛ فإن تساووا فبالسبق إلى طاعته ؛ ثم يرتب الواحد بعد الواحد بالسابقة فى الإسلام ؛ فإن تكافأوا فبالدين، فان تقاربوا فبالسن ، فان تقاربوا فبالشجاعة ، فان تقاربوا فبالرأى والاجتهاد ، أو بالقرعة[1] .

* * *

ويذكر الرجل فى عنة الورقة منسوباً إلى بلده أو ولايته ، فيقال الرومى أو العربى أو نحوه ثم الجارى له تحت اسمه ؛ ويفصل ذلك بفصل يسير .

ثم يكتب يسرة الورقة بعد ذلك الفصل: سنه ، ثم لونه ؛ ثم الجبهة وأوصافها من ضيق أو رحب الخ ثم الحاجبان وحالهما من فرق أو بلج ، أو زجج ، ثم العينان وما فيهما من كحل الخ ، ثم الأنف وما فيه الخ ، ثم الأسنان ودردها ، أو فلجها ، أو أو الخ ، ثم الشفة وما فيها من علم أو فلج الخ ؛ ثم الشامات والخيلان وآثار الضرب والطعن ، ويعتمد من هذه الحلى على ما لا يتغير ويتنقل .

ولا تكتب حلية قائد ولا أمير أو نحوهما من المشهورين ، لغناء شهرتهم .

ثم يذكر عددهم ومبلغ جاريهم فى آخر الصحيفة وتخرج الصحف بالأسماء والحلى والجارى للمنتفعين[2] :

وهذا شىء يختلف باختلاف الدول والأقاليم ، فلنكتف بذلك .

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨٠.

(٢) شرح أدب الكاتب للبطليوسى ص ٧٤ وما بعدها .

مساكن الجند

« الشكنات »

بدأت نهضة القوم وبيوتهم مضاربهم المتنقلة ، يقيمونها حيث تجب الإقامة أو تحسن ، بلا غضاضة عليهم فى ذلك ولا مشقة ؛ ولذا كانوا أصبر فى الحصار على المكث فى العراء لاعتيادهم ذلك ، وكانت تلك الخيام ثكناتهم إبان قيامهم بالفتح الأعظم فى الصدر الأول ؛ حتى امتدت الفتوح ، وانبسطت رقعة الدولة ، واحتاجت البلاد للحفظة الرتب فكانت :

الثغور والمرابطة بها

الثغر :

موضع المخافة من فروج البلاد التى تلى بلاد العدو ، وقد أقيمت الجنود المرابطة منذ امتد الفتح ؛ فقد قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس ، وربعا فى السواحل ، والنصف مقيم معه ، وكان أهم الثغور وأخطرها الثغور الشرقية والشمالية الشرقية لمكان الروم منها ، ولما أقيمت الحاميات الراتبة بالجهات سميت كل ناحية فيها عسكر ، يقبضون أطماعهم بها من خراجها جندا ؛ كجند نيسابور ، وجند قنسرين وغيرها تقام بها الجند فى المسالح ، وعلى المناظر ، وتتخذ لها المواقيد .

وكان الجند بها يسكنون كل مرفوض من الديار ، جلا عنه أهله ؛ أو الساحات المتروكة ، وما خلا من المنازل ويقطعون الأراضى بها ، وتبنى لهم المساجد للصلاة[1] فكان لكل عريف من مرابطة الاسكندرية قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، وكانت تلك الدور لهم يسكنونها لا يحل لهم من كرائها شىء ، ولا بيعها ،

(١) فتوح البلدان للبلاذرى صفحة ١٣٥ .

ولا يورث منها شيء ؛ وإنما كانت لهم يسكنونها فى رباطهم ، حتى إذا قفلوا سكنها الروم ، وعليهم مرمتها .

هذا : وقد تبنى لهم الأبنية الخاصة بهم إن لم يوجد مايسكنونه ، وتلك الأبنية تختلف باختلاف العصور وحضاراتها ، ففى عهد «المنصور» عام ١٣٩هـ بنى «صالح ابن على لجند ملطية الذين أسكنوها ، لكل عرافة (من ١٠ إلى ١٥ رجلا) بيتين سفليين وعليتين فوقهما واصطبلا(١) .

وتقام الحصون بتلك الأجناد من متين البناء بالحجر ، وتتخذ بها أهراء الطعام والحبوب لاختزان المؤن والصهاريج للمياه وقاعات السلاح وهكذا مما يحتاج إليه الجند المرتب .

وظلت تلك الأجناد حتى عهد الرشيد فغير بعض تقسيمها وسماها العواصم ؛ لأن المسلمين يعتصمون بها فتحميهم وتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ؛ وكانت الثغور بالمملكة الإسلامية إبان بسطتها كما يأتى :

ابتداء من ساحل البحر الأبيض المتوسط « بحر الروم » الثغور المعروفة بثغور الشام وهى : طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، وعين زربة ، والكنيسة ، والهارونية وبياس وتقاباس ، ووراءها من بلاد الإسلام : أنطاكية ، والجومة ، والقورس وهى التى تسمى العواصم لأنها تعصم الثغر وتمده وقت النفير .

ويليها عن يمينها إلى جهة الشمال منها الثغور الجزرية وهى : ثغر مرعش ، والحدث ، وزبطرة ، وقد خرجت زبطرة على عهد المعتصم ، وأقيمت مكانها حصون ، وثغر كيسوم ، وحصن منصور ، وشميشاط ، وملطية .

وكل ثغر بينه وبين بلاد العدو درب وعقبة إلا ثغر ملطية فمع بلاد العدو فى أرض واحدة .

وهذه الثغور الجزرية هى الواسطة التى تقع منها المغازى .

---

(١) فتوح البلدان صفحة ١٩٦

ويلي هذه الثغور عن يمينها جهة الشمال الثغور المسماة بالبكرية وهي سميساط « بالسين المهملة » وصافي ، وملكين وحصون منهاجحج ، وحوران ، والكلس وغيرها ، ثم ثغر قاليقلا إلى الشمال من هذه الثغور(١) .

ولما اضطرب أمر الدولة الكبرى بالمشرق خربت هذه الثغور ، وبات الناس طعمة للروم، فقد حكى المقدسي وهو من رجال القرن الرابع الهجري أن أمر الثغور قد انقضى لعهده(٢) .

وكانت الغزوات من الشام لتلك الثغور أيام القائمين بالأمر من صالحي الخلفاء تكون إما :

١ — صوائف « واحدتها صائفة » وتقع لعشر تخلو من شهر تموز الرومي الموافق « يوليو » .

٢ — وإما شواتي « واحدتها شاتية » وتكون مما لا يبعد فيه ولا يوغل وأن يكون ذلك آخر شباط « فبراير » ، ويكون الغزو مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره .

٣ — وأجهدها الربيعية وتقع لعشر تخلو من أيار « مايو » بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، وإذا دخلوا بلاد العدو أصابوا المراعي(٣) ، وسنذكر الثغور البحرية في موضعها إن شاء الله .

* * *

هذا حال الأجناد في الثغور والعواصم ، وأما داخل المملكة فقد تقام لهم

(١،٣) نبذ من كتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن جعفر مطبوعة مع كتاب المسالك لابن خرداذبه بليدن .

(٢) أحسن التقاسيم طبع ليدن ، وهناك ثغور الجنوب والغرب ، لا نطيل بذكرها .

الدور الخاصة بهم ؛ كما انشئت فى بغداد فى القرن الثالث الهجرى ثكنة نزلها الأتراك وشاركهم فيها الفراغنة والمغاربة ، وكان يدعى أصحابها أهل الدور(١) .

بل إننا نرى منذ الصدر الأول مدناً تؤسس بدافع الحاجة العسكرية ، أو دفعا لأذى الجند عن العامة ؛ ويختط فيها الجند منازلهم على الرحب والسعة ، كما ترى الفسطاط ، وقطائع ابن طولون ؛ و « سر من رأى » وسواها .

وبالقاهرة كانت خطط للجند خاصة ، وسميت بأسمائهم ، ولا يزال بعضها يحفظ هذه الأسماء حتى يومنا هذا ، كحارة « اليانسية » تنسب لطائفة من طوائف العسكر منسوبة لخادم خصى من خدام العزيز الفاطمى يدعى أبا الحسن يانس الصقلى وتعرف اليوم « بدرب الإنسية » بشارع المغربلين .

ومنها الجودرية نسبة إلى « جودر الصقلى » ، ومنها حارة الأتراك المعروفة اليوم بدرب الأتراك قرب الأزهر ، تنسب للأتراك الذين قدموا مصر مع « هفتكين » لما غلب ببغداد وجمع لحرب العزيز الفاطمى(٢) .

وبمصر من مساكن الجند قلعة الجبل ، والأبراج التى كان يسكنها المماليك المعروفون بـ « البرجية » وهى مثال الثكنات العسكرية المعروفة فى التركية بـ « القشلاقات » .

---

(١) ابن الاثير ج ٧ ص ٧٥ و ٧٦ .

(٢) ابن إياس فى مواضع متفرقه .

التعبئة

وطرق القتال

هذا باب لا ننال منه إلا لماما ، ولا نوغل فيه إلا على حذر ، فهو أخلق بأرباب الفن من قادة وأجناد ينبسطون فى وصفه ويسهبون فى مناحيه ، أما نحن فما إن نقول فيه إلا بمقدار يسير ، يكشف لقارىء التاريخ عن وصف المعارك والمعامع فى كتب القوم .

كانت طريق العرب فى قتالهم أيام الجاهلية « الكر والفر » وهو قتال أهل البادية وأشباههم من البربر وغيرهم ؛ وذلك بأن يصفوا إبلهم وما معهم من الظهر الذى يحمل ظعائنهم ، وما فى الجيش من حيوان وجماد وراءهم ، يجعلونه ملجأ للخيالة فى كرهم وفرهم ، وإقبالهم وإدبارهم .

ولكن لما بدأت حياتهم الجديدة بالإسلام كان قتالهم كله « زحفا » وذلك : أن يرتب الجند صفوفا مُسَوّاة منظمة ، تمشي بصفها إلى العدو قدما ، فيكون أثبت لهم عند المصارع ، وأرهب لعدوهم ، لأنهم كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فى إزالته[1] وهذا مافى قوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

وشدد الله فى عقاب المولّى يوم الزحف فقال « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتهم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير» . وذلك لأن الجندى فى صفه كاللبنة فى الحائط يهى صفه بوهيه ويمكن العدو من قومه بثغرة مكانه التى يتركها .

وانما كان قتال العرب بعد الإسلام بالزحف خاصة لأنهم :

---

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٢٩٨ وما بعدها .

١ — وجدوه طريقة أعدائهم المتبعة فى القتال .

٢ — ولأنهم كانوا مستميتين فى قتالهم لما رغبوا فيه من المثوبة ، وقتال الزحف ، بالصف أولى بالمستميتين وأوثق لهم .

وظلوا كذلك حتى كانت وقعة «اليرموك» عام ١٣ من الهجرة ، وأراد المسلمون الخروج إلى الفرس متساندين صفوفا ورأى « خالد بن الوليد » رضى الله عنه كثرة الفرس واستعدادهم وتعبئتهم فخطب فى القوم يحضهم ويرشدهم ، ثم عبأهم تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك إذ جعلهم ستة وثلاثين كردوسا ، إلى أربعين وقال : إن عددكم كثير ، وليس تعبئة أكثر فى العين من تعبئة الكراديس ، وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان[1] .

وهذه الكراديس تشبه المربعات التى استعملها الاسكندر المقدونى ، وامتاز بها نابليون فى العصور الحديثة ، رتبها خالد بن الوليد صدر القرن الأولى من الهجرة كما رأيت وإن كان « ابن خلدون» رحمه الله فى مقدمة تاريخه ينسب ذلك لمروان بن الحكم الأموى ولا أعرف لذلك وجها ! وخالد بن الوليد قد فعله قبله بعشرات السنين كما صح ذلك ونقل ، بل إن ابن خلدون نفسه ذكره فى واقعة اليرموك[2] ونسبه لخالد بن سعيد » وما أحسبه إلا من خطأ النساخ ، وإنما هو خالد بن الوليد ، وإن لم يكنه فقد كانت الكراديس قبل أيام مروان بن الحكم ، إلا أن يكون القتال بالصف قد بطل منذ عهد مروان بتاتاً ، وهذا ما لا نجزم به .

* * *

وكانوا يقسمون الجيش إلى خمسة أقسام ، إذ يكون رئيس العساكر كلها من سلطان ، أو قائد فى القلب ، وبين يديه عسكر منفرد بصفوفه ، متميز بقائده ورايته ، وشعاره يسمونه «المقدمة» ثم عسكر آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٥٨ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٠
(٣) بقية الجزء الثانى ص ٨٥ .

يسمونه «الميمنة» وآخر عن شماله يسمى «الميسرة» ثم عسكر آخر من وراء العسكر يسمونه «الساقة» لأن الجند قد تتخلف عن الرحيل، لبعد المدى فى التعبئة فتكون فى حاجة إلى من يسوقها من خلفها.

وتكون هذه الأقسام فى مدى واحد للبصر، أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها، أو على قدر ما تعطى حال العسكر من قلة من كثرة.

على أن هذه التسمية والتقسيم لا تتوقف على قيام القائد وسط الجيش فقد يكون القائد فى عرين له على ربوة يشرف على الجيش، أو فى شرف من قصر أو ربوة أو شبيه ذلك.

ويكون على الجيش «الأمير العام» ويقابل «المشير» اليوم ثم يليه خليفته، ويقابل «الفريق» ثم يليه أمراء التعبئة وهم «الألوية» الآن. وهم منه مكان أركان حرب القائد يستشيرهم ويستعين بهم، وبذوى الأسنان من المحنكين فى الجيش.

* * *

وكانوا يجعلون مع الجيش أيام الفتوح الأولى أميرا للأفياض يتولى أمر الغنائم، وقاضيا للجند يشبه قاضى العسكر فى الجيش العثمانى، وترجمانا إذ يحتاجونه فى المفاوضة، وكاتبا كذلك.

وكانوا يرسلون الأطباء مع الجيش على قدر ما تسمح به حالهم العلمية، ولذلك حين اتسعت معارفهم فى الطب وكثر الأطباء جعلوا فى الجيش:

المستشفيات المتنقلة:

كما أنشأ السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥٢١ هـ فى معسكره مارستانا ينقل على أربعين جملا، وخدم فيه الطبيب عبيد الله (أو عبد الله) بن المظفر الباهلى

الأندلسى[1] وبذلك وضعوا أرقى نوع لخدمة الجيوش قبل أن تؤسس جمعية الصليب الأحمر بقرون .

* * *

وكانوا يتخذون الخنادق على المعسكر ويديرون الحفائر نطاقا عليهم من جميع الجهات ليتحصن الجيش داخلها منعا للبيات والمباغتة ؛ وقد اتخذ النبى عليه السلام الخندق حول المدينة فى الغزوة المعروفة ، وحين اتسعت الدولة كانت لهم القوة على ذلك بمعونة :

فرق العمال فى الجيش[1]

الذين تدل أخبارهم على العناية بهم واتخاذهم لهم ، حتى كانوا يقدمون بين يدى الجيش : فرقة منهم يسمونهم « النَّفَّاضَة »[2] ينفضون الطريق ويمهدونه ، ولا نطيل بالكلام على تنوع التعبئات عندهم فقد رقت وتغيرت واتخذت أشكالا كثيرة جادت بها أذهان القواد المهرة فى مضايق الحاجة والاضطرار ، وترى لهم كتب فى ذلك لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم ومحفوظا بدار الكتب المصرية يرجع إليها الدارسون المختصون كما أشرنا ، ولا نطيل بذكر طرق القتال عندهم وفنون المعارف الحربية خشية الإملال .

ولكننا نذكر على مناسبة التعبئة :

الموسيقى فى الجيش

وقد كان العرب فى باديتهم يحتالون لإثارة الحمية فى نفوس العسكر بوسائل مختلفة ، منها حمل النساء معهم وضربهن على الدفوف ، وإنشادهن ما يهيج

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

(٢) ويسمى هؤلاء العملة القديدون وفى القاموس المحيط — قد — « والقديديون ولا يضم تباع العسكر من الصناع ، كالشعاب والبيطار » اهـ .

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٩ .

الحماس فى القلوب ، فكانت « هند بنت عتبة » فى غزوة « أحد » ومعها خمس عشرة امرأة يضربن على الدفوف ويبكين قتلى بدر ، وحمل المشركون فى غزوة بدر الكبرى « القيان » معهم يغنين ، فلما كان الإسلام ظلت عادة حمل النساء مع الجيش متبعة ، حتى أواخر الدولة الأموية ، ولكنهم تجافوا عن اتخاذ الطبول وسائر آلات الموسيقى فرارا من أبهة الملك وزخرفه ، حتى كانت الدول ذات الأبهة القائمة ، فاتخذت الطبول فى الجيوش تدق لدعوة الجند إلى القتال ، وعند اللقاء إذكاء للحماس ، وبتمادى الأيام كان لذلك شأن كبير فى الزينات الملوكية ، حتى كانت « الطبلخاناه » فى مصر أيام الأيوبيين والمماليك عبارة عن طبول متعددة معها ، أبواق ، وزمارات ، وتكون صيحة الطلب فى الأسفار والحروب وجعل لها « بيت » خاص عرف « بالطبلخاناه » أى بيت الطبل ، تجمل فيه آلاتها ، ويحكم على ذلك أحد أمراء العشرات ويعرف بـ (أمير عَلَم) يتولى أمرها فى السفر والحضر ولها « مهتار » متسلم لحواصلها يعرف « بمهتار الطبلخاناه » ، وله رجل تحت يده مابين «دبندار» وهو الذى يضرب على الطبل ، و«مُنَفِّر» وهو الذى يضرب بالبوق و « كوسى » وهو الذى يضرب بصنوج النحاس، وغير أولئك من الصناع[1].



وحق علينا بعد الكلام فى التعبئة ألا نترك الكلام عن :

عرض الجند :

وقد كان عرض الجند والتنقيب عن حالهم ، وأسلحتهم ، ومعارفهم ، وما إلى ذلك يجرى فى مختلف العصور الإسلامية على أرق ما تجرى عليه « الاستعراضات فى الأيام الأخيرة ، ولكننا لا نسهب فى ذلك خشية الإملال ، وموعدنا البحرية واستعراض الأساطيل فالكلام هناك أمتع ؛ وليس فى الوقت متسع للافاضة هنا ، فننتقل بعد تلك التعبئة والاستعداد إلى :

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ١٢ .

المواصلات

ونقل الجند وإيصال الأخبار ، وتموين الجنود المقاتلة ، وما إلى ذلك ، ونذكر أولا :

مراكبهم

كانت مراكب القوم فى صحرائهم « سفن البادية » من الإبل التى ألفوها وألفت فيافيهم ، وهم بأصنافها ، ومحاسنها ، وعيوبها ، وأمراضها ، وأدويتها أعرف الناس . وقد كانوا يرتبطون الخيل كذلك ، لأنها عدتهم فى قتال الكر والفر. فلما وطئوا الريف واتسعت المراعى والأودية بعد الفتح الإسلامى كثرت خيلهم ، وحسنت ولاسيما بمدحث الدين على اتخاذها فى قوله تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وقوله صلى الله عليه وسلم « ارتبطوا الخيل فإن ظهورها لكم عز وبطونها لكم كنز » .

والخيل العربية أعرق الخيل أصولا ، وأكرمها دماً ، وكانت لهم بأنساب الخيل عناية واحتفاظ حتى كانت لأنسابها جرائد مثبتة فى الديوان كأنساب الناس(١).

وكانوا ينتقون خيول الجيش فلا يدخل فيه ضخم كبير ، ولا ضرع صغير ، ولا حطيم كسير ، ولا أعجف رازح هزيل ؛ ويجعل للفارس ضعف عطاء الراجل فيصرفه على العناية بجواده كما رأيت ذلك عند الكلام على العطاء ، وقبل تدوين الديوان كان يسهم للفارس بأكثر مما يسهم للراجل .

وكان إقليم « أقور» فى شمال الجزيرة حيث الموصل الآن معدن الخيل العتاق يجلبونها منه(٢) كما كانت مصر كذلك مورداً للخيل الجياد ، حتى كان الخلفاء يشترطون على عمال مصر فى تقليدهم الخيلَ العربية وأجلالَ الخيل والبغال والحمير(٣)

(١) ابن إياس ج ١ ص ٤٠ .
(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ١٣٦ .
(٣) تاريخ ابن إياس ج ١ ص ٤٠ .

وكان أولو الهمة من الخلفاء والأمراء يجدون فى ارتباط الخيل والإكثار منها، فقد خلف « ابن طولون » من الخيل سبعة آلاف فرس ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ؛ وخلف من الجمال عشرة آلاف جمل[1] واشتد غرام ابنه « خمارويه » فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاصطبلات ، وما أكثر اصطبلات خمارويه ! فقد جعل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفردا ، فكان لخيل الخاصى اصطبل مفرد ، ولدواب الغلمان اصطبلات عدة ، ولبغال القباب اصطبلات ، ولبغال النقل غير بغال القباب اصطبلات ، وللنجائب والبخاتى اصطبلات ، لكل صنف اصطبل مفرد .

كل ذلك سوى الاصطبلات التى فى الجيزة ، والتى فى مصر لإنتاج خيل حلبة السباق ، والرباط فى سبيل الله برسم الغزو ، ولكل اصطبل وكلاء لهم الرزق السنى ، والوظائف الكثيرة ، والأموال المتسعة ، وكان لخمارويه عدة ضياع من الجيزة مثل : نهيا ووسيم وسفط وطهرمس ، وغيرها لا تزرع إلا القرط برسم الدواب [2] .

وكان للفاطميين بمصر ما يفوق هذا ويفضله من الخيل والاصطبلات ، وكانت لهم بمصر خزائن خاصة للسروج .

وكانوا منذ العصر الأول يلبسون بعض الخيول نوعاً من الدروع يسمى « التجفاف » ويسمون الخيل المدرعة « المجففة » ، ويسمون غيرها « المجردة » ، ويحملون على كل منها رجلا عند القتال . وأواخر العصر الثالث استعملوا العجلات لنقل الجند والأسلحة والذخائر ، ولا نرى ذلك فى الفتوح الأولى لوعورة البلاد العربية وعدم استواء الطرق بها ، هذا إلى ما بالعربات من ثقل يعوق السير ، وآلاتهم التى يحملونها كانت تحمل أجزاء منفصلة تركب عند القتال ، على أننا لا ننفى استعمال العجلات بتاتا فقد رأيت فى وصف الدبابات أنها كانت تحمل على عجلات ، ولكنها إن استعملت لم تشع ولم تكثر ، حتى تعم وتكون من وسائل النقل والحمل ، ونذكر بعد ذلك شيئا عن :

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١١١ .

البريد والطرق

وضع عمر رضى الله عنه البريد فيما أحدث من نظم الدولة ؛ وأتقن معاوية نظامه . وأحكم أمره باتساع الدولة فكان له ديوان خاص مفرد .

وصاحب هذا الديوان لابد أن يكون على علم بالطرق منازلها ووعورتها وسهولتها ، ومياهها ، ومسالحها ، وجبالها ، ووهادها وأنهارها ومحاجرها وأبعادها ؛ مقدرة بالفراسخ ، ليكون عند حاجة صاحب الأمر إذ أراد إنفاذ جيش .

ويدلك على عنايتهم بالبريد ونظامه ، والطرق وتمهيدها ما وقع إلينا من بقية الكتب التى ألفت فى وصف طرق المملكة الإسلامية ككتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه ، وما ذكره أبو الفرج قدامة بن جعفر فى كتابه « الخراج وصنعة الكتابة »[1] .

ولا نطيل الكلام فى البريد والطرق والنظم فى ذلك ، توفيراً للوقت على ما هو أولى بذلك البحث الذى رسمناه ، وقد أعان الله بشىء ربما أفاد وأبان عن البريد والطرق ضمن رسالة فى « السياحات الإسلامية » قدمها الضعيف كاتب هذه الكلمات إلى المدرسة منذ ثلاثة أعوام، إلا أنا على ذكر البريد والطرق نقول : إن قواد المسلمين كانوا يقيمون خطوط الدفاع على طول البلاد إذا أرادوا مهاجمة العدو، ويقيمون لذلك المسالح ، والواحدة منها « مسلحة » ويسمى بذلك الجنود الذين يقامون فى نقط متقاربة على عشرات من الفراسخ ، ويطلق اسمهم على مكان إقامتهم تسمية للمحل بالحال ، وهى أشبه بالمخافر العسكرية فى عرف الجند المصريين ، ويكون بالمسلحة نحو الخمسين من الجند ، أو أكثر ، أو أقل ، يحمون الطريق ويوصلون الأخبار ويكونون ردءاً للجيش الزاحف ، ومما عنوا به لإيصال الأخبار بما يستطاع من السرعة :

---

(١) وقد طبع كتاب المسالك ومعه نبذ من الخراج فى ليدن .

المناظر والمنارات

وهى : قباب عالية متقاربة تقام بين كل بلد وآخر أو كل رباط والذى يليه ، بحيث يشرف بعضها على بعض وتعرف بالمناظر والمنائر ، ويرتب فيها الحراس ويجمل بها الوقود ؛ فإذا كان النفير ليلا أوقدت النار فى المنارة ، وإن كان نهاراً دخنوا بالمنائر الشاهقة ، فيوقد الذين يلونهم أو يدخنون فلا يكون إلا ساعة وقد نفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودى[1] .

وقد كانت العناية بتلك المنائر منذ الصدر الأول ، فقد كتب « معاوية » إلى « عمر رضى الله عنه » بعد موت « يزيد » أخيه ، يصف له حال السواحل فكتب إليه « عمر » فى مرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة بها ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها . واتخذت بعد ذلك فى الشرق والغرب ، ولا تزال بقاياها ببلاد الشام على الجبال ، ومعظمها من بقايا الدول التركمانية والكردية والجركسية أيام الصليبيين إذ كانوا قد عنوا بها عناية كبيرة[2] . ومن وسائل التعجيل بإيصال الأخبار الحربية استعمالا .

حمام الرسائل

ويعرف بحمام البطاق وهو نوع من الحمام الأهلى اشتهر بسرعة طيرانه وكثرة اهتدائه ، وهو يطلب وكره ، ولو أرسل من ألف فرسخ ومنه مايقطع ثلاثة آلاف فرسخ فى يوم واحد ، وربما اصطيد وغاب عن وطنه عشر حجج فأكثر ، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه إلى وطنه ، حتى يجد فرصة فيطير إليه[3] .

ولذا كان يستخدم فى الحروب والمحاصرات والتجارات لحمل الأخبار منذ

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم المقدسى ص١٧٧ .

(٢) أشهر مشاهير الإسلام .

(٣) دائرة المعارف للبستانى ج ٧ ص ١٦٨

أجيال طوال ، فقد ثبت أنه كان يستعمل لتطيير أخبار الألعاب الأولمبية ، وكذلك كان يستعمل فى رومية ، ويظن المؤرخون أن أول مرة استعمل فيها الحمام فى الحروب كانت سنة ٤٣ ق. م ، إذ حصر انطونيوس مدينة موديتا، فأرسل رئيس الحكومة إلى حاكم إحدى المدن رسالة معلقة بخيط فى عنق حمامة ، فأجابه برسالة معلقة فى رجلها[١] .

هذا، وأما تاريخ الحمام عند العرب فلم أجد فيما يعرف من كتب التاريخ العربية أنهم استعملوه فى جاهليتهم ، ولقد جاء فى « لسان العرب » زجل الحمامَ يزجل كينصر زجلا ، أرسلها على بعد وهى حمام الزاجل والزجال ، ولكن ما هذا الإرسال ؟ ولمَ ؟ . أفى الحرب كان هذا الإرسال ؟ هذا مالا نستطيع قوله تخرصا .

وأما فى الإسلام فقد نجد ما يجرئنا على القول بإرسال الحمام فى الأخبار ، فقد « دفع محمد بن على بن أبى طالب إلى بعض خاصة إبراهيم بن الأشتر حين خرج مطالباً بدم الحسين حماما ، بيضا ضخاما ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها »[٢] ولكن لا نجد فى أخبار الفتح الأول شيئاً من إرسال الحمام بالأخبار ، ولعلهم لم يكونوا إذ ذاك فى حاجة إليه ، إذ هم مهاجرون، لاتحملهم الحاجة إلى استعمال تلك المراسلة الهوائية ، وإن يكن قد استعمل فليس بكثرة وعناية ، ونظام مرسوم إلا ما كان فى بلاد الموصل ، وانتقل إلى مصر فحافظ عليه الخلفاء الفاطميون ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام .

وكان أول من عنى به ونقله نور الدين زنكى الشهير رحمه الله سنة ٥٦٥ هـ إذ فتح أقاليم كثيرة ورأى ضرورة سرعة وصول الأخبار وغناء الحمام فى ذلك ، فرتبه بمصر وشيد فى جهاتها وجهات الشام أبراجا كثيرة ، وأنفق فى ذلك

---

(١) الحيوان للجاحظ

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٦٩ .

أموالا طائلة ، واستعمله بعده صلاح الدين الأيوبى فى الحروب الصليبية لحمل إليه خبر وصول الملك لويس إلى مصر ، وأخبار حرب المنصورة ، التى دارت فيها الدائرة على الصليبيين(١) .

ولم يمض على استعمال الحمـــام قرن واحد حتى كان عدد الأبراج بالقلعة سنة ٦٨٧ هـ (١٩٠٠) برج ، وكان بكل مركز حمام فى سائر نواحى المملكة مصراً وشاما مابين أسوان إلى الفرات ، ولهـا علوفات تصرف من الأهراء السلطانية ، وكان يعمل فى الطيور السلطانية علائم خاصة وهى « داغات » فى أرجلها ومناقيرها .

واتخذوا لتلك المراسلة ورقا خاصاً كان يعرف بورق الطير ، والورقة التى تـكتب فيها الرسالة تعرف « بالبطاقة » وهى فى الأصل الرقعة الصغيرة المنوطة بالثوب والتى فيها رقم ثمنه ، سميت بها لأنها تشد بطاقة من هدب الثوب ، ثم توسع فيها ، وقال البستانى دائرة المعارف إنها مأخوذة من « بتّـاكيُـون » ومعناها باليونانية ورقة أو رسالة(٢) .

ولا تـكتب فى تلك البطائق بسملة ، ولا يذكر حشو فى الألفاظ بل لايكتب إلا لُب الـكلام وزبدته ، وتؤرخ بالساعة واليوم ، ولا تعنون إلا إذا كانت منقولة كأن تسرح إلى السلطان من مكان بعيد ، فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد ، وكل وال تصل إليه يكتب فى ظهرها أنها وصلت إليه ، وتقلها حتى تصل مختومة .

ويسرح الطائر ورفيقه حتى إن تأخر الواحد يرقب حضور الآخر ، ويتوخى الإبعاد فى التسريح عن مستقر الحمام لئلا ترجع إلى أبراجها من قريب ، فى مصر كان إذا أطلق الطائر إلى الإسكندرية لا يسرح إلا من منية عقبة « ميت عقبة بالجيزة » وإذا بُطـق إلى الشرقية لايطلق إلامن مسجد «تبر» خارج القاهرة ، وإذا سرح إلى دمياط لا يسرح إلا من ناحية « بيسوس » ويسير مع البَرّاجين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من الجاندارية .

(١) زبدة كشف الممالك طبع باريس ص ١٧٧ ودائرة المعارف البستانى .
(٢) دائرة المعارف ج ٧ .

وكان الحمام إذا سقط بالبطاقة لا يقطع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة ، كانت لهم عناية شديدة بالطائر ، فالبراجون يديمون النظر إلى الجو لرؤية الطائر الساقط ، وحمله بسرعة وعناية ، وحتى أن السلطان إذا كان يأكل وسقط الطائر لا يمهل حتى يفرغ من الأكل ، بل كان يحل البطاقة ويترك الأكل ، وهكذا إذا كان نائماً لا يمهل بل ينبه[1] .

وكانت للحمام محاط فى الطريق منظمة بها البراجون والحراس ، ولا نطيل بتفصيل الطرق والأبراج فرارا من السأم والملل ، وإن شئت الرجوع إلى شيء من ذلك ففى كتاب «زبدة كشف الممالك» المطبوع فى باريس ، وفى خطط المقريزى شيء منه .

وقد أخذ الصليبيون استعمال ذلك الحمام من الشرقيين حين حاصروا أورشليم سنه ١٠٩٨ م ٤٦٩ هـ » فراسل قائدها قومه بواسطة الحمام ، فانقض على حمامة منه طير جارح فسقطت ميتة بين عساكر الصليبيين وهم يقطعون سهول عكاء فعرفوا مقاصد العرب من الرسالة التى كانت تحت جناح الحمامة[2] .

وقد بطل استعمال الحمام فى القرن التاسع الهجرى بمصر كما ذكر ذلك المقريزى . وظل استخدام الحمام بسوريا إلى القرن السابع عشر الميلادى ، فقد ذكر مسيو « مايه » قنصل فرنسا بالشرق أن خدمة حمام البطاق كانت جارية فى أيامه بالاسكندرية لتبليغ أهالى الداخلية خبر وصول السفن التجارية . واستمر إرسال الأخبار مع الحمام حتى القرن الثامن .

وإذ ذكرنا البريد ، والحمام ، وطرق المراسلة ، نجد بنا الحاجة إلى وصف المراسلات السرية التى يستغنى عنها جيش محارب يكتم أسراره عن أعدائه ، فنقول :

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) دائرة المعارف للبستانى ج ٧ .

المراسلات الشفرية

« الكتابة السرية »

تعرف الكتابة السرية بالرموز المصطلح عليها عند الفرنج (الكريبتوجرافيا) وتعرف فى المتداول (بالشفرة) وهى تعريب لفظة (كيفر) أو (شيفر) وهى نفس المراد من لفظة الجفر فى اللغة العربية وهو فن الرموز الاصطلاحية ويسميه العرب أيضاً فن اللحن، فقد جاء فى كتب اللغة: لحن فلان لفلان لحنا قال له قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره .

واللحن الكتابى قديم يرجع إلى عهد اليونان فقد ذكر ابلوطرخوس، أنه كان لأهل اسبارطة طريقة بسيطة فى ذلك وهى أن تؤتى بمخصرتين (أى عصوين قصيرتين) مستويتين فى الغلظ والطول تعطى إحداهما للقائد أو الشخص المراد مخاطبته لتكون عنـــده بمثابة مفتاح للرموز السرية وتحفظ الأخرى فى سجلات المملكة فإذا أرادوا مخاطبة القائد جاءوا بسير من جلد ولفوه على مخصرتهم لفاً لولبياً ثم كتبوا عليه ما يريدونه، أسطرا موازية لطول المخصرة من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر كما فى هذا الشكل .



ثم يحلون السير ويرسلونه إلى القائد فلا يظهر منـه بعد حله إلا أحرف متقطعة لا يهتدى إلى طريقة ضمها إلا إذا أعيد لف السير على المخصرة المماثلة للأولى كل المماثلة فى الطول والغلظ وذلك ما يفعله القـائد حين ينتهى إليـه السير المرسل .

واستعملها الرومان أيضاً، ثم تفنن الناس بعد ذلك فعمدوا إلى اصطلاحات شتى لا تـكاد تقع تحت حصر، وتعددت الطرائق الحديثة فبعضها بالأرقام والرموز

وبعضها بالحروف ، وزاد التفنن باتخاذ طرائق غريبة لا يمكن الاهتداء إليها إلا بأمور كثيرة لا تتيسر [1] .

وأما العرب فقد كانوا فى جاهليتهم قليلى العناية بالكتابة ، فكان اللحن الكتابى عندهم قليل الاستعمال ، ولقد نقل عنهم منه ما كان غير مبنى على قاعدة ولا اصطلاح ولكنه الذكاء الفطرى وحدة الذهن .

فمن ذلك ما نقل عن بعض الملوك أنه عزم على قصد عدو له فأرسل رجلا خبيراً أرض العدو وجده فى غاية التحصن ، وشعر به الملك فقبض عليه وأمره أن يكتب يتجسس فلما دخل الرجل كتابا إلى مرسله يذكر فيه أن القوم ضعفاء ويحسن له غزوهم وتهدده بالقتل إن لم يفعل، فلم يسعه إلا أن يكتب فكتب بما صورته « أما بعد فقد أحطت علماً بالقوم وأصبحت مستريحاً من السعى فى تصرف أحوالهم ، وانى قد استضعفتهم بالنسبة إليكم ، وقد كنت أعهد من أخلاق الملك المهلة فى الأمور . والنظر فى العاقبة . ولكن ليس هذا وقت النظر فى العاقبة فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة بإذن الله ، وقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك ، نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام » .

فلما انتهى الكتاب إلى الملك قرأه على رجاله فقويت قلوبهم، ثم إن الملك خلا بكبرائه وقال: أريد أن تتأملوا هذا الكتاب فإنى شعرت منه بأمر ، وإنى غير سائر حتى أنظر فى أمرى ، فقال بعضهم ما الذى لحظه الملك فى الكتاب ؟ فقال : إن فلانا من ذوى الحصافة والرأى ، وقد أنكرت ظاهر لفظه ، فتأملت فحواه فوجدت فى باطنه خلاف ما يوهم الظاهر ، وذلك فى قوله « وأصبحت مستريحا من السعى » فإنه يريد أنه محبوس ، وقوله «استضعفتهم بالنسبة إليكم » يريد أنهم ضعفنا لكثرتهم ، وقوله «أنكم الفئة الغالبة بإذن الله» يشير إلى قوله تعالى « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » وقوله « رأيت من أحوال القوم ما يطيب له قلب الملك » فإنى تأملت ما بعده فوجدت أنه يريد بالقلب فى قوله « قلب الملك » العكس لأن الجملة الآتية مما يوهم ذلك ، فقلبت الجملة وهى قوله

(١) الهلال : المجلد الرابع والعشرين . عدد ٤ .

« نصحت فدع ريبك ودع مهلك » فإذا مقلوبها « كلهم عدو كبير عد فتحصن ».

وفى اللغة ما يمين على هذا اللحن ، وقد عقد الجلال السيوطى فى كتابه « المزهر » فصلا عنوانه « ..معرفة الملاحن والألغاز وفتيا فقه العرب »[1] .

وتجد اللحن الشفوى عند العرب كثيراً شائعا لانصرافهم عن الكتابة كما سبق ، ومن هذا اللحن ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الخندق إذ قال لسعد بن عبادة وسعد بن معاذ وهما سيدا الأوس والخزرج أئتيا بنى قريظة فإن كانوا على العهد فأعلنا بذلك ، وإن كانوا قد نقضوا ما بيننا فالحنوا لى لحنا أعرفه ولا تفتا فى أعضاد المسلمين ، فرجعا بغدر القوم فقالا يا رسول الله « عضل والقارة » فقال رسول الله المسلمين أبشروا فإن الأمر ما تحبون ، وعضل والقارة حيان كانا فى نهاية العداوة للرسول فأرادا أن بنى قريظة كذلك فى العداوة »[2] ولكن لم يفهم أحد إلا الرسول ، الذى خاف نتيجته على القوم فشجعهم بقوله « أبشروا » الخ .

ولما اتصل العمران واستوسق الأمر للدول بعد ذلك اضطروا إلى الكتابة السرية كما هى معروفة اليوم ، أى بالتواطؤ على حروف أو أرقام يتراسلون بها ولم يسموها باللحن ، بل اختاروا لها المترجم « وفن الترجمة » واشتغل منهم جماعة بهذا الفن وكتبوا فيه وتفننوا فى وضع أصوله وطرائقه ، ومهد بعضهم فى كشف معماه وحله بغير مفتاح ، شأنهم فى كل ما تتناوله هممهم ، ولكن أتى على هذه المؤلفات آت من الدهر ؛ طمسها فيما طمس من معالم حضارتهم ، وعفاها فيما نكر من شواهد علمهم وعملهم .

ويذكر الأستاذ أحمد تيمور باشا[3] أن فى خزانته من تلك المؤلفات أرجوزة

---

(١) المزهر ص ٣٣١ وما بعدها .
(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٩١ .
(٣) فى مقال له نشر فى مجلة الهلال بالمجلد ٢٤ ص ٣٧٤ .

العلامة على بن الدريهم المتوفى سنة ٧٦٢هـ[١] وقال : إن الأرجوزة المذكورة دهاها داءٌ من المسخ والتحريف حتى كادت تلحق بالألغاز ، إلا أنها على علاتها لا تخلو من فوائد فى بيان نمط هذه الكتابة عندهم .

ولا نجد لهذه الكتابة ولا كتبها ذكراً فى المصنفات اللغوية والتاريخية ، ولعل ذلك لاحتفاظ الدول بشأنها وتكتم أمرها والضن بها على غير أهلها ، وعدها سراً من الأسرار حتى ذهبت بذهاب أهلها ولم يبق منها إلا ما تعثر به عرضاً فى صفحات التاريخ ، ومن ذلك ما جاء فى « كتاب آثار الأول فى ترتيب الدول »[٢] عند الكلام فى باب أصحاب البريد ، والأخبار العيون ، إذ قال :

« والمستحب أن يكون بين الملك وبين البريد وصاحب الخبر ترجمة لا يطلع عليها غيره فلكل واحد ترجمة مع صاحبه ، وإذا أراد الملك أن يحتاط فى ذلك فلا يقنع فى الأمور العظام إن كتب أو كتب إليه بالترجمة ولا بخط الكاتب ولا بالختم ، فإن هذه ربما يجبر عليها فاعلها ، أو يشابه لها ، بل يكون بينهما علامة لا يطلع عليها غيرهما » اهـ .

وقد ذكر الأستاذ شيئاً عن « أرجوزة ابن الدريهم » وعدد أبياتها وما بها من التحريف والمسخ ، ومابها من الرموز الاصطلاحية، وما إلى ذلك إلا أنها تكتفى بذكر بعض الطرق التى بينت بتلك الأرجوزة فمنها :

١ — طريقة إبدال حرف من حروف المعجم بحرف آخر منها يصطلح عليه ، إما على ترتيب الحروف المعروف ، أو على الترتيب الأبجدى وهى إحدى طرائق اليوم ، ومنها :

---

(١) فى الجزء الثانى من فهرست مكتبة البلدية ببرلين ص٥٠٨ و٥٠٩ ما نصه « على بن محمد ابن عبد العزيز بن فتوح الموصلى الشافعى تاج الدين أبو الحسن بن الدريهم المتوفى سنة ٧١٢ هـ ١٣١٢ م » لا كما هنا ٧٦٢ وقد ورد ذلك بمناسبة الكلام عن كتابه « غاية المغنم فى الاسم الأعظم » وهو مخطوط محفوظ بها « ورد فى الفهرست المذكور ذكر كتب أخرى لابن الدريهم المذكور ، فحقق تاريخ وفاته وترجمته .

(٢) صفحة ٨٩ ، ٩٠ منه .

٣ — طريقة قلب أحرف الكلمة ؛ إما بالعكس ، وإما بالتقديم والتأخير ، بأن يبدل من الأول الرابع فنقول فى سابعها ، عابسها ، أو الثانى بالرابع ، أو الأول بالثالث أو غير ذلك من الأوضاع التى يتفق عليها ، ومنها :

٣ — أن يعمد إلى كل كلمتين فينقل أول الأولى وآخرها ، إلى الثانية ، وأول الثانية وآخرها إلى الأولى ، كما إذا أردنا أن نكتب « أمين كتب » فإنا نكتب مكانها « كميب أتن » وهكذا ، ولهذه الطريقة أنواع كثيرة . ومن الطرق:

٤ — إبدال الحروف بما لها من الأعداد فى حساب الجمل ، وتقرب هذه الطريقة من طريقة الأعداد التى تستعمل الآن ، إلا أن أعداد حساب الجمل يعرفها العامة ، وتلك يتواضع عليها تواضعاً جديداً . ومنها :

٥ — أن يزاد حرف بين كل حرفين من حروف الجملة ثم يصور المجموع بصورة ما يشاءون من الكلمات مبالغة فى الأبهام ويظهر أنهم كانو يتوخون فى زيادة الحروف أن يشتمل المجموع على كلام ذى معنى فى الجملة فلو أراد أن يقول « محمد أخو على » يكتب « من حام قد بار خضوع عيل لى » فإذا أسقطت الحروف المزيدة من هذه الجملة وهى الثانى والرابع والسادس وهكذا وجدت الباقى محمد أخو على ، ومنها :

٦ — وضع علم لكل حرف من حروف المعجم يدل عليه من أسماء الحبوب أو الفواكه أو الحيوان أو غير ذلك ، أشبه بالهيروغليفية إلا أن هذه تصور فى الهيروغليفية ، وهنا فتكتب أسماؤها ، ومنها :

٧ — أن يدل على الحروف بألوان ستة ذكرها صاحب الأرجوزة .

وهذا ما فى أرجوزة ابن الدريهم ، وماذا فى غيرها ؟ هذا ما حالت سرية فن الترجمة دون ترك شىء منه للتاريخ يشفى الغلة ويبين مقدرة القوم وما جادت به ثمرة أفكارهم القوية الناضجة المبدعة ، وعلى ذكر المراسلات السرية نذيل البحث بكلمة عن :

أصحاب الأخبار والعيون « الجواسيس » :

التجسس على أخبار العدو أمر تدعو إليه ضرورة الحرب وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه إذ تجسس بنفسه أمر العير فى بدر الكبرى ، فخرج هو ورجل يتلقفان خبر قريش ، فسألا رجلا فاشترط عليهما أن يخبرها بمكان قريش إذا أخبراه من هما ، قال لهما من أنتما ؟ فقال الرسول عليه السلام « نحن من ماء » أى من ماء دافق وظن الرجل أنهما يريدان العراق لأنها ذات ماء .

وقد عنيت الدول بعد ذلك بأصحاب الأخبار والعيون الذين هم الجواسيس لمعرفة حال الأعداء وأجرت عليهم الأرزاق والأموال أمنا لكيد الأعداء واتقاء مكرهم ، ولا نطيل تعداد هذه النظم على اختلاف الدول والعصور ففى ما تقدم كفاية وغناء ، ونستخير الله بعد ما قدمنا فى أمر البرية على ضيق الوقت ومزاحمة الدروس وظروف الأيام وننتقل إلى الكلام عن البحرية .

البحرية

المسلمون وركوب البحار

قبل أن نلقاك بوصف الأساطيل الإسلامية وعظمتها ، لا نستطيع إلا أن نعرج على قالة سوء ، تشدق بها بعض الجهلة من الفرنج ، ومن فتنوا بهم فى شأن الصدور الأول المقاديم من المسلمين . تلك ضلالتهم فى رمى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، بتحريم ركوب البحر، ونسبة ذلك إلى الدين الإسلامى وعده من أصوله .

لقد أوعز عمر رضى الله عنه بمنع المسلمين من ركوب البحر ولم يركبه أحد فى عهده من العرب إلا من افتات عليه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزدى سيد بجيلة لما أغزاه « عمان » فبلغه غزوة فى البحر فأنكره عليه وعنّفه[1] .

وما ذلك إلا لنظر منه بعيد المدى ، ورأى ثاقب أعز ، إذ العرب إذ ذاك بدو وليس لهم ثقافة فى امتطاء البحر وتذليله ، بل كانوا يخافونه ، وينفرون منه لما ألفوه من البادية ، وانقطاع عهدهم بالبحر وسلوكه ، حتى إلى ما بعد الإسلام بعشرات السنين ، فان أعرابياً قدم على الأسود بن بلال المحاربى أمير البحر للوليد ابن يزيد الأموى ففرض له « ابن بلال » وأغزاه فى البحر فقال من شعر له :

فيابن بلال للضلال دعوتنى ... وما كان مثلى فى الضلال يسير
لئن وقعت رجلاى فى الأرض مرة ... وحان لأصحاب السفين وكور
وسلمت من موج كأن متونة ... حراء بدت أركانه وثبير
لتعترضن اسمى لدى العرض حلقة ... وذلك إن كان الإياب يسير

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٨ ط ؟

وقد كان لى حول الشربة معقد لذيذ ، وعيش بالحديث غرير

هذا حال سوادهم ، منصرم القرن الأول ، بعد « عمر » ومعاوية فكيف بهم أيامه رضوان الله عليه ، والروم قد مارسوا أحواله ، ومهروا فى التقلب على أعواده ومرنوا عليه ، فليس خليقا بأحلاف النصر المؤزرين ، الذين زلزلوا عرش « كسرى » و « قيصر » فى الشرق والغرب أن يلججوا فى البحر فيبدو ضعفهم ويتبين أعداؤهم موضع الخور منهم . . إلى ذلك قصد ابن الخطاب ذو الرأى السديد ، فلما دانت لهم الأمم وتقربت إليهم بمعارفها واستخدموا النواتية منهم فى حاجاتهم البحرية ركبوا البحر ، وكانت لهم فيه الجوارى المنشآت كالأعلام .

أما أن فى أصول الدين من السنة ونحوها ما يحرم ركوب البحر ، أو يمنعه فهذا ما لا أصل له ولا حقيقة ، وحسبنا فى هذا المقام أن نسوق إليك حديثاً مما صح عن النبي ﷺ فى غزوة البحر أنه قال : « غزوة فى البحر خير من عشر غزوات فى البر » « ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها والمايد فيه كالمتشحط فى دمه » ومما صح عنه عليه السلام أنه نام عند « أم حرام بنت ملحان » إحدى خالاته من الرضاع ثم استيقظ وهو يضحك ، فقالت مم تضحك يارسول الله ؟ قال من أناس من أمتى يركبون ثبج هذا البحر الأخضر ، غزاة فى سبيل الله مثلهم مثل الملوك على الأسرة ؛ قالت : فقلت يارسول الله : ادع الله أن يجعلنى منهم ؛ قال أنت من الأولين ، ولست من الآخرين » فركبت البحر فى غزوة قبرص مع زوجها « عبادة بن الصامت » رضى الله عنه زمن معاوية سنة ٢٧ هـ إذ غزا معاوية قبرص فى إمارته بالشام ، وماتت بقبرص ، رحمها الله ورحم قوماً هى منهم

نشأة البحرية الإسلامية وتدرجها

إن البحرية الإسلامية لم تبدأ مع نهضة الفتح الأعظم ، فى الصدر الأول ، إذ لا ممارسة للقوم بركوب البحر ، ولا سواحل لهم ؟ وأملاك الدولتين الرومانية والفارسية منهم على رمية قوس ، فلما امتد الفتح وكانت لهم الثغور بالشام ومصر

وخليج فارس ، والبحر العجمى ، وغيرها جدت بهم الحاجة إلى إقامة المراكب بالبحر لحماية السواحل ، وردعادية الروم وغيرهم .

وأول من ركب البحر من المسلمين للغزو ، هو «العلاء بن الحضرمى» عامل عمر على البحرين إذ عبر إلى فارس ، بغير إذن عمر رضى الله عنه، ونزل«اصطخر» فحال الفرس بين القوم وبين سفنهم ، وكان ما خاف عمر أن يكون ، فاشتدغضبه على العلاء وكتب إليه يعزله ، وتوعده ، وندب إلى القوم من استنقذهم .

ولما كان معاوية بالشام على جند دمشق والأردن ألح على عمر رضى الله عنه فى غزو البحر لقرب الروم من حمص وقال : إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم ، وصياح دجاجهم ، فأحب عمر رضى الله عنه ، أن يردعه فكتب إلى« عمرو بن العاص » وهو على مصر : أن صف لى البحر وراكبه ، فان نفسى تنازعنى إليه ، وأنا أشتهى خلافها فكتب إليه :

« يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير» ، «ليس إلاّ السماء والماء ، إن ركد حزن القلوب ، وإن زلّ أزاغ العقول » « يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ؛ هم فيه كدود على عود ؛ إن مال غرق » « وإن نجا برق » .

فلما جاءه الكتاب كتب إلى معاوية يمنعه ، حتى كانت خلافة عثمان رضى الله عنه فلم يزل به معاوية حتى أذن له بركوب البحر ، فغزا قبرص وكان أول أمير البحر من المسلمين(١) .

وما زال حتى صار الأمر إليه فعنى بالبحرية ، وكان كثير الظفر والنجاح فى الغزوات البحرية ، وله الموانى المديدة بسواحل الشام ومصر ، وغابات لبنان تمده بالأشجار ، ولذا كثرت السفن البحرية فى أيامه حتى بلغت عدتها «١٧٠٠» قطعة ، وأغزى ابنه « يزيد » القسطنطينية مرات(٢) .

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

(٢) قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون — مترجم من اللغة الفرنسية

وعنى خلفاؤه من المروانيين بالسفن فأوعز « عبد الملك بن مروان » إلى « حسان بن النعمان» عامله على أفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ، ونقل هشام الصناعة من عكا إلى صور ، واتخذ بها فندقاً ومستغلا .

ومخرت سفن الأموية غرباً ببحر الروم ومشرقاً بالبحر الأحمر ، والمحيط الهندى فقد غزوا سواحل الهند الغربية ونزلوا السند بسفنهم فى أول القرن الثانى من الهجرة (عام ١٠٧ ﻫ)(١)

وكانت الدولة العباسية فاتصلت العناية بالبحرية لحماية الثغور وحفظ مكانة الدولة ، فقد غزا الرشيد القسطنطينية ، وأمر المتوكل بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل ، وشحنها بالمقاتلة ؛ وكانت لهم السفن النهرية تجرى فى دجلة والفرات ونهر النيل وغيرها والسفن البحرية المختلفة الأشكال المتعددة الصور .

وقامت دول بالأطراف عنيت بالأسطول أيما عناية ، كما كان الحال فى مصر والأندلس ، شواطىء أفريقية الشمالية ، حتى أن « ابن طولون » بمصر مات مخلفاً من المراكب البحرية الحربية والشوانى ألف مركب(٢) .

وكان القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس عصر عظمة البحرية الإسلامية وقوتها فقد كانت الدولة العبيدية ، إذ ذاك بشواطىء المغرب ومصر ، والأموية بالأندلس على قوتها ، وانتهى أسطول الأندلس أيام الناصر إلى مائتى مركب وأسطول افريقية مثله أو قريباً منه ؛ والمسلمون قد غلبوا على بحر الروم من جميع جوانبه وعظمت صولتهم به ، وامتد سلطانهم فيه ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل سيورقة ، ومنورقه ويابسة ، وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة ، واقرطيش وقبرص وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة ، والمساكر الإسلامية تجيز البحر فى الأساطيل من صقلية إلى أرض فرنسة وبر « رومية »

---

(١) ابن الأثير ﺟ ٥ ص ٥٠

(٢) ابن اياس ﺟ ١ ص ٤٠

فتوقع بملوك الفرنج وتثخن فى ممالكهم ، وانكمشت أساطيل الفرنج بالجانب الشمالى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط لا تعدوها .

وهذا بينما كانت السفن التجارية ترود سواحل الصين وجزائر الهند الشرقية قريباً من الجزائر اليابانية كما تشهد بذلك آثارهم من دين وتجارة (وقد استوفى هذا الموضوع فى رسالة السياحات الإسلامية لكاتب هذه السطور .

ومازال الأمر كذلك حتى أدرك الوهن العبيديين الأمويين وشاخت خلافة بغداد ، فمدّ الفرنج أيديهم إلى جزائر البحر الأبيض الشرقية فامتلكوها وراحت صقلية واقريطش ومالطة وغيرها . ثم كانت الحروب الصليبية فكانت للفرنج الهجمات على سواحل الشام ومصر إلى أن هب صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، يدافع ذلك السيل الطاغى فعنى بالأسطول وأجرى السفن بالبحر الأبيض تذود عن سواحل مصر والشام ، وبالبحر الأحمر تحمى شواطىء الحجاز وقبر الرسول عليه السلام ، وإذ ذاك كانت الموحدين الصولة بالمغرب فى القرن السادس الهجرى حيث ملكوا العدوتين ، وكانت لهم بالأسطول وعسكر البحر عناية مشكورة ، حتى أنه لما ضر يت بصلاح الدين أوربا المتعصبة بعث إلى أبى يعقوب المنصور « يوسف بن تاشفين » سلطان المغرب لعهده من الموحدين طالباً الأمداد ، من أساطيله لتجول فى البحر بين أساطيل الفرنج وتستنقذ الأرض المقدسة من أيديهم فنقم على الوفدين من القوم تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين ، وأسرها فى نفسه ، ورد القوم ولم يجبهم ، إلى حاجتهم ، صنع الله له وعفا عنه(١)

ثم ذهبت ريح القوم بالأندلس ، والمغرب والشرق قاطبة إلى أن أدال الله للعثمانية فمنيت بعد استقرار أمرها بالأسطول ، وظفرت بدرة الشرق التى بدأ المسلمون منذ عهد معاوية يرنون إليها وملكت بالدردنيل والبوسفور مفاتيح البحر الأبيض الشرقية ، حتى كانت أيام سليمان القانونى الذى عنى بالأسطول أكثر من أسلافه ووفر القوى البحرية حتى تم له الأسطول الفخم ، الذى نشر عظمته

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

شرقاً وغرباً على سواحل البحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، وقيضت له العناية من بواسل أمراء البحر من جعل اسمه وعلمه حمى وملاذاً لعظماء وملوك أوروبا فى عصره .

إلى أن قامت بين أوربا وتركيا موقعة « ليبنتو» التى دمر فيها دون جون النمسوى أسطول العثمانيين فى أواخر القرن العاشر الهجرى ، فأطمع القوم فيهم ، وأثبت أن هذا الشبح الذى ترهبه أوربا من الجلال والمهابة والمنعة بحيث لا تناله عزائم الأوربيين المتحدين .

وفتر بعد ذلك أمر الأتراك وطمع فيهم أعداؤهم ، فتراجعت عن البحر قوة المسلمين لضعف الدوله ، ولا سيا فى القرون الأخيرة حين تكالبت أوربا الطاغية عليها ، واليوم استبيح حمى الدين والخلافة ودرج يوم أوربا فى معاهد القسطنطينية المنيعة ، واحتكم العدو فى الخلافة والدولة والسلطان والرعية ، ولقد قال الإمام ابن خلدون رحمه الله منذ أكثر من خمسة قرون إذ انتهى به الحال إلى مثل هذا الضعف أو يكاد فقال « والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله ، ومن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب » « الحدثان أن لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد » «الأفرنجة وأن ذلك يكون فى الأساطيل والله ولى المؤمنين »

وأنى اليوم لأقول ، ومن المشتهر بين أهل الشرق عن كتب النهضة والاتحاد أن لا بد للشرق من الكرة على أوربا واسترداد ما نهب الفرنج من المجد ، وأن تكون لنا الأساطيل والله ولى العاملين الذاكرين مجد آبائهم السابقين فى البر والبحر وما كان لهم من الهمة والأقدام فى :

بناء السفن

و

« دور الصناعة »

الصناعة أو دار الصناعة : اسم لمكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية ، وكانت دار الصناعة أولا بمصر فقط ، حتى خرجت الروم إلى السواحل سنة ٤٩هـ فأمر معاوية بترتيب الصناع فى السواحل ، وكثرت بعدها دور الصناعة فى سائر نواحى الدولة الإسلامية .

فكانت فى مصر صناعة « الروضة » وهى أول صناعة عملت بفسطاط مصر سنة ٥٤ هـ ، وبها كانت تضع السفن أيام بنى طولون ، حتى كان عهد الإخشيديين فنقلت الصناعة إلى ساحل مصر القديمة .

ثم أنشأ الفاطميون على عهد المعز لدين الله صناعة « المقس » وكانت دار وثيقة حسنة وكانت بعد ذلك الصناعات بمصر والاسكندرية ودمياط على اختلاف الدول والأيام .

وكانت دور الصناعة بالمغرب فى بجاية ، وسبتة ، وطنجة ، والجزيرة الخضراء و« طرطوشة ، ودانية ، وغيرها[1] ولما أسس الفاطميون المهدية بالمغرب أنشأوا بها دار صناعة اتخذ مكانها نقرا فى الجبل ، وكانت تسع « ٢٠٠ » شينى وعليها باب مغلق ونقر فى أرضها أهراء للطعام، ومصانع للماء وبنيت فيها القصور والدور[2] فاعتبر بذلك جلال هذه الدور وعظمتها الصناعية .

ومن ذلك أنه كان فى دار الصناعة بسبتة « ٧٠٠ » قدوم ، وقد صنع بها

---

(١) الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية (خط بالخزانة التيمورية ص ٢١ وما بعدها

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٠ .

فى القرن الثامن الهجرى أيام السلطان أبى الحسن المرينى « طريدة » تمت فى يوم وليلة وحمل بها ثمانون فرسا .

وكانت أنحاء المملكة الإسلامية الواسعة الفنية تمد هذه المصانع بما تحتاجه من المواد ، ففى الشام كانت جبال « لبنان » الوافرة الأشجار وفى مصر كانت أشجار الأثل والسنط وغيرها متوافرة تمد عمل الأساطيل فكانت الحراج بالوجه القبلى فى البهنسا ، وسفط رشين ، ومنبال ، والأشمونين ، وأسيوط ، وأخميم ، وقوص ، وكانت تخرج الأوامر السلطانية بحراستها وحمايتها والدفع عنها ، حتى توفر على صناعة العمائر ، فكانت تلك الحراج من السعة والعظم بمكان أخشى إنكاره لو حدثتك عنه ، فقد ذكر « ابن مماتى » المتوفى سنة ٦٠٦ هـ أحد نظار الدواوين فى الدولة الأيوبية[1] أنه كشف عما استضافه المقطعون من حراج البهنسا فوجد المأخوذ منها « ١٣٫٠٠٠ » ثلاثة عشر ألف فدان ، فأعجب لحراج يتحيف من أرضها ثلاثة عشر ألف فدان ولا يؤثر ذلك فيها ، وتلك حراج البهنسا فكيف بغيرها ! ولا أزيد على ما وصف من حال الحراج فى مصر فأنت ترى اليوم حالها من الأخشاب وفقرها لمواد الوقود حتى تأخذ غاز استصباحها من الفحم ، بل ليس بها ما يقوم بعمل الآلات الزراعية الساذجة ونحن الآن فى عصر الرقى العملى فاللهم احكم بيننا بالحق .

ونعود إلى ما كنافيه فنى الأندلس : بوادى بجاية وجبالها الأخشاب الكبيرة وكذلك كانت بجبال طرطوشة أخشاب الصنوبر الذى لا يوجد له مثل فى الطول والغلظ ، ويجلب من أقاليم بجاية الزفت وبها معادن الحديد الجيد وبدار الصناعة بجزيرة سلطيش « وهى جزيرة صغيرة على مقربة من ساحل الأندلس » كانت تصنع مراسى المراكب من الحديد الجيد صناعة نادرة لم يكن مثلها فى الدنيا فى زمانها ، وهكذا كانت صناعة أسلاف أولئك الذين عجزوا عن اصطناع الأبر يرتقون بها فتوق ثيابهم .

(١) قوانين الدواوين لابن مماتى طبع مصر صفحة ٤٧ .

وكانت تصنع السفن على نوعين فنها : المخرزة غير المسمرة وهي المراكب التي يسلك بها بحر الهند والصين ، فكانت جميع مراكبه من كبار وصغار تتخذ من الخشب المحكم نجره ، وقد حل أطراف بعضه على بعض وهندم وخرز بالليف وجلفط بالدقيق وشحم دابة بحرية عظيمة تسمى البابة ، وكانت تلك السفن مع ذلك كبيرة حتى ليكون الرجل فى المركب منها ومعه غلامه فيناديه بأعلى صوته من الجانب الآخر فلا يسمعه وإنما كانوا يتخذونها كذلك غير مسمرة .

أنواع السفن الإسلامية

السفينة فعيلة بمعنى فاعلة من « سفن » كأنها تسفن الماء أى تقشره ، والسفّان ملاح السفينة ، ومن آلات السفينة :

« السُكّان » وهو ما يعرف عندنا « بالدفة » سمى بذلك لأنها تسكن ؛ عن الحركة والاضطراب ، و « الشراع » القلع وجمعه قلاع ، و « المجدف » مشتق من جدف الطائر إذا كان مقصوصاً فتراه إذا طار كأنه يرد جناحيه إلى خلفه وهو « المقذاف » اقذفه الماء ، وما إلى ذلك مما استوفى فى كتب اللغة .

والأسطول مركب تهيأ للقتال وليس بعربى الأصل وإنما هو معرب كلمة «ستولى» اليونانية وهى اسم رداء طويل يتصل إلى القدمين وهو أشبه بقلع المركب[1] ، وقد يطلق الأسطول على السفينة الواحدة كما ترى ذلك كثيراً فى كتب التاريخ وكانت السفن عندهم على ضربين ، بحرية ، ونهرية ، ومن أشهر أنواع السفن البحرية : —

الشوانى :

جمع « شينى » أو « شونه » وهى أقدم أنواع السفن التى عرفها المسلمون واهتموا بصناعتها ؛ وظلت معروفة حتى الدولة العثمانية ، وكانت قبلهم معروفة للرومان ، وكان المسلمون يتخذون بها الأبراج العظيمة والقلاع التى تحاصر والقتال عليها مُلِيح والنفط يرمى عليها ، وتشحن بالعدو وآلات الحرب ، وتجهز بالسلاح ، والنفّطية ، وعدة من النقابين لأعمال الحيلة فى النقب[2] .

وقد تسمى « بالأغربة » ويكون فى الغراب الكامل منها عشرة ممن

---

(١) دائرة المعارف للبستانى . الجزء الثالث . مادة أسطول .

(٢) المقريزى فى خططه ج س ٤١٦ ط الليجى .

يسوسونه : منهم ريس ريح ؛ وماسك « يتولى أمر الدفة » ونقيبان ، وأربعة نجارين وحكيم وجرايحى ، وجلفاط[1] وثلاثون من أهل الزعامة والخبرة بضرب السيف وقتال البحر ، ٤٠ راميا ، وأكبر الغربان يكون فيه نحو ١٨٠ مجدافا ومنها :

الحراريق :

واحدتها حراقة وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها آلات القتال كالمنجنيقات وهى مجانيق صغار وقد اتخذوا من المنجنيقات أنواع لطاف وصغار اختصت بالسفن وكانت تسمى « اللعب » ؛ ولها قائم واحد وتنصب على لقاطة « شعبتى خشبة » تدور فى القائم كيفما أراد الرامى ، ولما عرف النفط والبارود واستعملا كانت تحمل بها مكاحل البارود وأنابيب النفط التى سيأتى وصفها ولذا كان منها حراقة نفط ، وحراقة بارود .

وكان من الحراقات أنواع تستعمل للرياضة البحرية أشبه « بالذهبيات » عندنا الآن .

ومنها حراقات الأمين الخمسة التى صنعت له على أشكال الطيور والحيوانات ؛ وحراقات غيره من خلفاء العباسيين ، ويرد ذكرها كثيرا فى تاريخهم ، وقد وصفها أبو نواس فى شعره .

وكانت حراريق النزهة تكون لعظماء الدولة كما تكون للخلفاء ، كما كانت حراقة طاهر بن الحسين .

ومنها .

البطس :

جمع بطسة وقد يرد ذكرها بالشين المعجمة ، وهى نوع من المراكب العظيمة

---

(١) وهو الذى يجلفط السفن بأن يدخل بين مسامير الألواح وخيروزها مشاقة الكتان ويمسحه بالزفت والقار (١ هـ مخصص) .

عرف أيام الحروب الصليبية واستعمله المسلمون والأوربيون وأجراها صلاح الدين ببحر الروم لتلقى بطس الفرنج .

وكانت تتخذ بها الأبراج العظيمة أشبه بالقلاع ، وتشحن بالميرة ، والأزواد والأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه فى القتال والحصار ، وتحمل آلاف الرجال من المقاتلة ، وتجعل على طبقات تخصص كل طبقة منها بفئة من الجند ، وقد ورد ذكرها فى سيرة صلاح الدين الأيوبى للقاضى بهاء الدين بن شداد ووصفها وذكر قتالها ، ومنها .

البوارج :

واحدتها بارجة ، وقد ورد ذكر هذه السفن فى قتال المسلمين للهنود أيام المأمون فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث من الهجرة فقد جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى ما نصه « فسار — أى محمد بن الفضل بن ماهان — » « فى سبعين بارجة إلى ميد الهند كذا ؟ فقتل منهم خلقا كثيرا الخ »[1] وتكرر ذكرها فى غير هذا الموضع من الكتاب ، وقال فى المخصص لابن سيده « البارجة سفينة تتخذ للقتال وتقول ما فلان إلا بارجة تريد أنه جمع فيه الشر ، ولعل فى ذلك ما يدل على عظم البارجة حتى تكون كبيرة جامعة ، ولعل هذا النوع من السفن مأخوذ عن الهنود واستعمل فى قتالهم إذ كانت تلك سفنهم كما ذكر المسعودى ذلك إذ قال : وامره « المعتصم » البوارج وهى مراكب الهند[2] ولعلماء اللغات بحث فى أن لفظ البارجة ترجمة كلمه « بيرا » الهندية وهذا يؤكد أنها هندية . ومن السفن :

القراقير :

واحدتها قرقورة وهى سفن عظيمة تحمل الزاد والكراع ومنها ما يكون

---

(١) ص ٤٥١ منه .

(٢) سفن الأسطول الإسلامى لعبد الفتاح أفندى عباده نقلا من كتاب التنبيه والإشراف للمسعودى .

بثلاثة ظهور وهذه أكبرها ، ومنها قراقير مسطحة[1] .

ويقابل هذه السفن النوع المعرف الآن « بالنقالات » ؛ وقد أخذ الفرنج اسم « القرقور » فيما أخذوا من أسماء السفن وغيرها واختلف فى لغات أوربا حتى عاد إلينا أسما للسفن المطهرة للأنهار والمرافىء المعروفة « بالكراكات[2] ، ومن السفن البحرية :

الشلنديات :

واحدها شلندى أو شلندية ؛ وهى مراكب مسطحة تحمل السلاح والمقاتلة ، وتضارع فى أهميتها الشوانى والحراقات ، ولعل هذا الإسم ما نقلناه الآن عن الأوربيين باسم « الصندل » علما للسفن التى تحمل البضائع[3] ومنها .

الطرائد :

جمع طريدة وهى سفن تجعل برسم الخيل خاصة ، وقد صنع منها بدار الصناعة بسبتة فى القرن الثامن الهجرى طريدة تحمل ثمانين فرسا كما سبق ذكر ذلك ، وهنالك أنواع من السفن غير ما ذكرنا نمسك عن ذكرها اكتفاء بما سبق ذكره من السفن الشهيرة .

ونذكر أنه كانت تلحق بالأسطول سفن أخرى تعرف « بالحمالات[4] » لنقل الحوائج ، أخرى من السفن الصغيرة تستعمل للكشف والمراسلة .

ومنها .

الشكير ، والزورق :

وللشكير من ثلاثين إلى ستة وثلاثين مجدافاً وأما الزورق فمن ٢٤ إلى ٣٠

---

(١) الأحكام الملوكية (خط) ص ١٩ .
(٢) سفن الأسطول — صفحة ٦١ .
(٣) منه صفحة ٦ .
(٤) قوانين الدواوين صفحة ١٦ .

بجدفا وهى سريعة الجرى لخفتها وسهولة دورانها وكرها وفرها ، ومن أجل ذلك يتحيل بها فى احراق المراكب الكبار وتتخذ الزوارق الخفاف لقطع الطريق على المراكب الكبار فإذا طلبوا دخلوا الأنهار الضيقة واعتصموا بالأدغال[1] .

السفن النهرية

من أشهر السفن النهرية عندهم :

الشذاوات والسميريات :

الشذاوات واحدتها شذاة وشذاوة ، والسميريات واحدتها سميرية ، أكثر ما كانت تلك السفن نهرية ، وقد استعملت كثيرا فى حروب الموفق مع الزنج فى القرن الثالث الهجرى بالعراق فكانت تنقل بها المؤن والجنود . وتقام لحراسة أفواه الأنهار .

وكانت تسقف الشذاة بالأخشاب ويعمل عليها الجبس ويطلى بالأدوية التى تمنع النار من إحراقها ثم يرتب النفاطون بالشذاه يرمون بالنفط وتارة بالرصاص المذاب[2] .

وكان بالسميرية أربعون مجدافا ، وقد كانت الشذاوات والسميريات مع ذلك تركب للتجارة أو لمجرد السفر فى الأنهار فقط كما نرى ذكر ذلك فى ابن الأثير وغيره .

ومن السفن النهرية .

العشاريات :

واحدها العشيرى ؛ وهو مركب حربى نهرى كان يجرى بالنيل فى مصر ، وورد ذكره كثيراً فى المقريزى ، وصف هذه السفن الرحالة عبد اللطيف البغدادى

---

(١) الأحكام الملوكية لأبن مشكلى (خط) صفحة ٢٠ منه .
(٢) وأبن الأثيرج٧ ص ١٢٥ .

فى القرن السادس للهجرة فقال « تسطح بألواح من خشب ثخينة محكمة »
« وتخرج منها أفاريز كالرواش نحو ذراعين وقد بنى فوق هذا السطح بيت من
خشب » وعقد عليه قبة وفتحت له طاقات وروازن بأبواب البحرمن سائر جهاته
ثم نعمل « فى هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض ثم يزوق بأصناف الأصباغ
ويدهن بأحسن الأدهان فيكون الرئيس جالساً على وسادته وخواصه حوله
والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواش وأطعمتهم وحوائجهم
فى قاع » «المركب واللاحون تحت السطح أيضاً وفى باقى المركب يقذفون به
لايعلمون شيئا من أحوال الركاب ولا الركاب تشتغل خواطرهم بهم اهـ » .

ومنها :

العسكيرى :

وهو مركب نهرى كان يستعمل كثيرا فى نهر السند وأفرهه الكبيرةويكون
فيه ستون مجدافا ويسقف حين القتال حتى لا ينال اللاحين شىء من السهام ولا الحجارة
وقد وصفه ابن بطوطة فى رحلته .

وذلك قليل من كثير جاء نشراً فى كتب التاريخ وأهملت العناية بوصفه حتى
ليغد المرء ما يقع عليه من ذلك طريقا ويسر أن أصابه عرضا فى كتب الرحلات
وثنايا حوادث التاريخ ، وبعد ذكر السفن نذكر :

اسلحة السفن الحربية

« ومعداتهـــا »

قدمنا فى وصف الشوانى اتخاذ الأبراج بها وأنها كانت كالقلاع البرية تحاصر وترمى بالنفط ويلح عليها بالقتال ، وكانت تحمل فى السفن : —

السكاليب :

وهى خطاطيف كبار من الحديد فيها سلاسل معقودة إلى المراكب ، فاذا اقترب المركب من المركب طرحت فيه فأوقفته(١) وكان فيها :

الباسليقات :

وهى سلاسل بعصى فى رءوسها رمانة حديد ضخمة ، وكانت تحمل فى السفن بأعلى الصوارى :

التوابيت :

وتكون من صناديق مفتوحة الرأس تصعد الرماة فيها إلى أعلى الصوارى قبل دنو العدو كيلا تنالهم سهامه ، ويكون فى أسفلها أضلاع معارضة يقفون عليها والصناديق ساترة لهم ، ويدلون مخالى تملأ بالحجارة فيرفعونها إليهم ويقذفون بها العدو .

ويكون فى السفن :

اللجام :

وهو حديدة طويلة محدودة الرأس جدا ، وأسفلها مجوف كسنان الرمح ، يدخل

(١) آثار الأول فى ترتيب الدول صفحة ١٩٧

عند الحرب فى « اسطام » المركب وهى الخشبة التى تكون فى مقدمها فاذا أمكنتهم الفرصة تأخروا قليلا ثم قذفوا به قذفة قوية فينطح المركب فيخرقه ويدخل الماء فيه .

هذا وتشحن السفن بالزرد ، والخوذ ، والدرق ، والتراس ، والرماح ، والقسى وتحمل بها الأحجار ، ليرمى بها الرجال من التوابيت وتقذف بها .

العرادات :

وهى مجانيق صغار تحمل بالسفن كما سبق ذكر ذلك .

ويرمى من السفن بقوارير النفط التى تشتعل ، يقذفها الرجال من التوابيت بدل الأحجار ، وقد سبق شرح هذه القوارير فى «البرية» عند الكلام على الأسلحة ، ويرمى منها :

القنابل المعمية :

وهى جرار تملأ بالنورة المدقوقة غير المطفأة وهى مزيج من الكلس والزرنيخ ، فتعمى بغبارها الأبصار ، وتلهب عليهم إذا تبددت ، وكذا تقذف القدور المملوءة بالكلس المطفى فيتصاعد غباره إلى مناخيرهم وعيونهم فما يستطيعون القتال .

ويرمون من السفن :

قنابل الانزلاق :

وهى قدور من الصابون اللين الذى يزلق الأقدام ؛ أو القدور اللاتى بالسدر والخطمة الرقيقين المخلوطين بدق الصابون ، تختم رأسها ، وترمى فى المركب فتتكسر ؛ ويرمى بعدها بقدور الحيات والعقارب(١) .

---

(١) لوحة ٩٨ من كتاب الأنيق الذى سبق ذكره

ولما عرفت النار وتفننوا في استعمالها كانوا يرمون على السفن نوعا من :

نار تشتعل فوق الماء :

وكانت تتخذ من شحم كلاب البحر والزفت والكبريت والراتينج وغيرها على مقادير ذكروها فتشتعل يومها وليلتها لا تنطفيء(١).

أنابيب النار :

وكانوا يرسلون النفط من أنابيب تجعل في السفن وتعرف في اليونانية باسم « سيفونيه » وتسمى عند العرب « بالزراقات » تنبعث منها نار النفط ، بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن(٢) .

هذا ويكون في السفن من :

أدوات الوقاية :

الطلاء بالأدوية التي تمنع النار من إحراق السفن وقد ذكرها ابن الأثير في وصف الشنداوات كما سبق، ولم يذكر ما هي ؟ ولا مم تصنع ؟ وربما كانت معروفة في عصره فأطلق ذكرها من غير شرح ولا تعليق مع غرابتها ، ولعل ما ذكره ابن منكلي عن الثياب التي لا تحترق بالنار وقد نقلنا عنه المواد التي تصنع منها(٣) .

ومن ذلك أنهم يجعلون في السفن الجلود واللبود المبللة بالخل ، أو الماء لدفع النفط ؛ أو اللبود المبلولة بالشب والنطرون أو الطين المخلوط بالبورق والنطرون ؛ أو الخطمي المعجون بالخل فكل ذلك يقاوم فعل النفط ، ويمنع الزفت والقار الذي بالسفن من الاشتعال(٤) .

وتجعل بالسفن القوس الثقيلة من الفولاذ لتضرب بها الكلاليب التي سبق وصفها فتنكسر وتفلت السفينة منها .

(١ ، ٢) الأحكام الملوكية لابن منكلي ص ٢٩ ، ٧٢ ، ٧٣ منه

(٣) انظر ذلك فيما سبق ص ٤٤ .

(٤) آثار الأول في ترتيب الدول للحسن بن عبد الله ص١٩٦ ، ١٩٧

وإذا أريد إخفاء المركب مخادعة للعدو رفعت لها قلوع زرقاء معدة لذلك ، حتى لا ترى ، لأنها بلون الماء ويشبه ذلك خدع الألوان التى كانت تستعملها طرادات الألمان فى الحرب الأخيرة .

وكذلك عند الاختفاء لاتشعل نيران فى المراكب ، ولا توقد فيها المصابيح ، ولا يترك فيها ديك ولا نحوه ، مما يدل العدو على مكان المركب وهكذا من ضروب الاحتياط الكثيرة المختلفة .

والآن بعد وصف السفن وسلاحها نتقدم إلى الكلام على :

التعبئة البحرية

والنــــداء

قد تكون التعبئة فى البحر مثلها فى البر ، فيجعل أمير البحر من سفنه «القلب» وفيه تكون سفينته ، و«الجناحان» و«الميمنة والميسرة» مثل جيش البر .

وقد يصفها على شكل نصف دائرة ليجد العدو سبيلا إلى الدخول فتطبق السفن عليهم وتحيط بهم .

وقد يصفها صفاً على الاستقامة ، حتى إذا أمكن الوقت تلاقى الجمعان فتنطح المراكب مراكب العدو «بالاجام» الذى يكون فى مقادم المراكب «وقد وصفناه» أو تطلق عليهم النار .

وتارة يقسم الأسطول إلى قسمين ، أو ثلاثة أقسام على قدر المراكب ويدخل قسم منها على العدو فيشغله ، ويأتيه الفريق الثانى من ورائه ومن جانبه فيؤخذ(١) . وهكذا يتفنن « أمير الماء » فى التعبية حسبما تهديه قريحته ويعينه موقفه وحال عدوه .

---

(١) الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر لمحمد بن منكلى (خط فى الخزانة التيمورية ، من مواضع متفرقة منه) .

وأما ترتيب الرماة فى المركب الواحد: فإنهم يجعلون فيه متفرقين قليلا ويفترقون فى الرمى فرقا ، فيرمى خمسة منهم مثلا على « ماسك الرِّجل » ـ الدفة ـ وطائفة يرمون صاحب الصارى ، وطائفة يرمون القذافة ، وطائفة يرمون مكان المقدم ؛ وطائفة يرمون الأبراج أو التوابيت إن كان ثمة أبراج : فاذا أنسى العدو أنهم تفرقوا وقت الرماية فرّق قوته ، فيرمون كلهم إذ ذاك جملة واحدة ، إما على القذافين أو على ماسك الرِّجل ، أو على مقدم رماتهم ، أو على مقدم التعبئة(١) وأما طريقة :

النداء :

وإصدار الأوامر فى البحر فكانت تكون بأن تجعل المراكب ناظرة إلى مركب القدم ، ويكون فى مكان ظاهر من مركبه شيء واضح يرى ، كبند ، أو «طرادة» تراها المراكب الأخرى ، فتعول على ما يعول عليه : ويكون قد قرر معهم فى أمر هذه العلامة أنها إذا مالت إلى جهة اليمين يكون لهم فعلٌ مّا ، وإلى اليسار فلهم فعل غير ذلك ، وإذا رفعت فشيء آخر ؛ وإذا أنزلت فسوى ذلك ، وإذا نفضت ، أو تحركت دلت على سوى ذلك كله ؛ وإذا نقلت أو نحّيت ، أو غيرت الألوان ، التى فى رأس العلامة فجعل الأزرق أحمر ؛ أو الأحمر أبيض ، أو الأبيض أخضر ، أو غير ذلك لجميع هذه علامات لأمور قد قررت بينهم وتواضعوا عليها ، ويعانى المقدم هذه الأمور بيده ويروض المقدمين الذين تحت يده ، وهم ربابنة المراكب وأمراء قطع الأسطول عليها ، حتى تعرف لهم معرفة جيدة(٢) .

فترى أنه كان لهم من ذلك نوع من أرقى أنواع التخاطب والتفاهم التام بالرايات وإشاراتها ، وألوانها ، كأرقى ماهو معروف اليوم فى العصور الحديثة من ذلك ، أعاد الله للاسلام والشرق فى البر والبحر عزته ومد صولته ، إنه سميع مجيب .

والآن نقول شيئا فى وصف القتال فى البحر بعد ما علمنا من أمر السفن وسلاحها وتعبئتها .

(١، ٢) الأحكام الملوكية — ص١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، صفحة ٧١ ، ٧٢ بتصرف وتلخيص

القتال فى البحر

حروب البحر وعرة شديدة ، عسرة ، لضيق المجال ، وتحكم الريح فى السفن ، وعوز الملجأ والمهرب ، إن قضت الحاجة ، بتراجع أو فرار ؛ ولذا كان أمراء الماء ، وولاة الأساطيل عند الحملة يستجيدون السفن ويستجدونها ، ويكثرون تقويتها ، وادخار الآلات بها ، حتى إذا تلف شىء منها وجدوا ما يخلفه ؛ ويختارون القواد والرؤساء من العارفين بمسالك البحار ومراسيها ، وعلامات الرياح ، ومهابها ، وتغيرات الأنواء ، والحركات البحرية من المد والجزر ، وغير ذلك . وقد صنفت الكتب فى ذلك ، واستقصى الشرح فيها .

ويعرف الكتاب الذى يسلك به الربابنة لجة الماء ، ويهتدون به فى معرفة المرامى وغيرها « بالرَّهنامج »(١) .

ويكون للأسطول : قائد ؛ ورئيس ؛ فالقائد يدبر أمر سلاحه ، وحربه ، ومقاتلته ، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح والمقاذيف ، ويسمى أمير الأسطول العام « أمير البحر » أو « أمير الماء » وهذا اللقب أصل كلمة « أميرال » التى هى لقب ربابنة السفن الحربية عند الفرنج ، وأول من استعمله من أهل أوروبا أهل جنوة(٢) لشدة اتصالهم بالعرب واحتكاكهم بهم ، وعنهم أخذت وعمت .

وتسير المراكب الكبار بالريح ، فإن سكن عنها جذبتها الشوانى إلى موضع القتال ، وتقدم المراكب الصغار بين يدى البطس ، والسفن العظيمة ، لئلا تغرق فى واديها إذا جاءت خلفها .

وإذا التقوا تقاتلوا ؛ إما بالترامى عن بعد ، وإما باصطدام السفن بالسفن فتنطحها بلجامها فى الجنب قريبا من مؤخرها ، فتخرقها ويدخلها الماء ويستأمن أهلها .

---

(١) القاموس المحيط .

(٢) محاضرات زكى باشا ، آثار العرب الخالدة فى أوروبا .

وإما أن يقرب الشيني من الشيني ، وتطرح عليه كلاليب الحديد « التي سبق وصفها » فتوقفه ، وتطرح الألواح والجسور بين المركبين ، فيلتقي الجندان كأنهما في اليابس ، وعندئذ يستعان على كسر هذه الكلاليب بالفؤوس الغليظة التي تكون في السفن .

وإما أن يحتال لإحراق المراكب المعادية بواسطة سفن صغار خفاف تلقى فيها النيران ، وتولى مسرعة ، فلا تلحقها السفن الكبار .

ويتخذ الربان من حال الريح ، والمد والجزر سلاحا يحارب عدوه ويكيد له ، ومن غرائب احتيالهم في ذلك وانتفاعهم بالفرص والأحداث الطبيعية ما كان على يد أحد الملاحين في القرن الرابع الهجري (سنة ٣٣١ هـ) وذلك إذ كان البريدي على البصرة فقصده « يوسف بن وجيه » صاحب عمان في مراكب كثيرة ، وكاد يملك البصرة وكان للبريدي سلاح يعرف « بالزيادي » ، فضمن للبريدي هزيمة ابن وجيه ، فوعده الإحسان العظيم ، وأخذ الملاح زورقين فملأهما سعفا يابسا ، ولم يعلم به أحد ؛ وأحدرهما في الليل حتى قارب « الأُبـلَّة » وكانت مراكب ابن وجيه يشد بعضها إلى بعض بالليل فتصير كالجسر ، فلما انتصف الليل أشعل الملاح النار في السعف الذي في الزورقين ، وأرسلهما مع الجزر ، والنار فيهما فأقبلا أسرع من الريح ، فوقعا في مراكب ابن وجيه وهي مشدودة ، فاشتعلت واحترق من فيها ونهب الناس منها مالا عظيما[1] .

وكان أمراء البحر يحتالون في تبديد قوى أعدائهم حتى ينالوهم على وهن كما يفعل قائد البر ، وذلك بأن تتراءى لهم مراكب مشانه خفاف ، ويظهرون لهم الانهزام فإذا انتشروا طالبين لما رأوه تضرب عليهم فجأة مراكب أخرى ، فعندما يكون العدو قد تعب في القذف يكون المقدم قد أرسل عليه أصحابه مستريحين .

---

(١) من ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٠ ، ج ١١ ص ١٥٥ .

العوامون « الغواصات البشرية » :

وكان الرجال يغوصون فى البحر ليخرقوا مراكب العدو فتغرق حالا[١] وقد مهر عندهم العوامون، واستعملوا لإيصال الرسائل والذخائر إذا حاصرت سفن العدو السواحل ، ومن هؤلاء عوام اشتهر فى الحروب الصليبية أيام صلاح الدين الأيوبى اسمه « عيسى » أبلى فى الغوص بلاء حسناً ، فكان يوصل الكتب والأموال على غرة من العدو يشدها على وسطه ويسبح تحت السفن حتى يجاوزها فيخرج إلى السير ويراسل القوم بالحمام إشارة إلى وصوله ، وآخر سفرة له مات فيها كان على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ، عدا كتب للعسكر كانت معه[٢] ، وقد غرق فى سفرته تلك، واستشهد سقى الله ثراه وجعله للمخلصين مثلا .

* * *

وإلى هنا نمتنع عن الإمعان فى البحث اكتفاء بما سبق ، شاكرين الله على ما وفق وأعان ، وقد كانت أبحاث أعدت فى ديوان الأسطول ونظام عرضه . وما إلى ذلك ولكن الوقت قد ضاق عنها ، ولا إخال القارىء إلا ضجرا ؛ وموضع الاستيفاء غير تلك العجالة التى هى نموذج بحث فقط ، ومثال للمرانة ، ونذيل البحث بكلمة :

(١) من ابن الأثير حـ٨ ص ١٣٠ ، حـ١١ ص ١٥٥ .
(٢) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ٩٨

خاتمة
آدابهم في القتال

الشريعة الإسلامية و القانون الدولى

نذكر بعض آداب المسلمين فى حروبهم ومعاملتهم لأعدائهم ، مقارنين ذلك بالقانون الدولى العام ، وخلاصة ما صار إليه المتمدينون ، وللقارىء بعد ذلك الحكم . فقد جرى على لسان كتاب « الحقوق الدولية » ذكر الفظاعة الوحشيه ونسبتها إلى الأقدمين يريدون بذلك ماقبل عصور تمدنهم ، وأحسب أنه يجب أن يخرج المسلمون من صنف أولئك القدماء ، وإليك تلك المقارنة .

بدء القتال

الشريعة :

إن كان المقاتلون قد بلغتهم الدعوة الاسلامية فامتنعوا ، ينذرون بالحرب ويصافون بالقتال ، والذين لم تبلغهم الدعوة لايبدءون بقتال قبل إظهار دعوة الاسلام ، وإظهار الحجة بمايقودهم إلى الإجابة ، فان أقاموا على الكفر صاروا كمن بلغتهم الدعوة .

فإن بدأهم القائد بالقتال قبل دعائهم إلى الإسلام وإنذارهم بالحجة ، وقتلهم غرة وبياتاً ضمن ديات نفوسهم ، وإذا كان المقاتلون معاهدين ونقضوا العهد جاز قتالهم بغير إنذار .

القانون الدولى :

الأفضل إعلان الحرب رسميا بابلاغها للدول المعادية (وقد وقعت لسوء الحظ حروب كثيرة شهرت فى القرن الماضى بدون سابق علم أو انذار بالحرب) .

وإذا رغبت دولة فى قطع العلائق السلمية مع دولة أخرى وجب عليها اخطار الدول بذلك (١) .

(١) حقوق الملل ومعاهدات الدول لأرسلان

المحاربون

الشريعـة :

يقتل من أخذ من مقاتلة المشركين ، ولا يجوز قتل النساء والولدان فى حرب ولا غيرها ، مالم يقاتلوا ، لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العسفاء والرضعاء ، فإن قاتل النساء والولدان قتلوا مقبلين لا مدبرين ، وإذا تترسوا فى الحرب بنسائهم وأطفالهم يتوق قتل النساء والأطفال .

القانون الدولى :

تعطى صفة المحاربين وحقوقهم الدولية لكل جند أو جيش محارب بخلاف الزمر والعصابات والقرصان وما بقى من الرعايا غير المنخرطين فى الجيش. فلا يعدون أعداء وعليه لا يجوز إلحاق الأذى بهم . وبعض الكتاب قد جهر بأن الكل من رعايا الدولتين المتحاربتين أعداء ، ولكن هجر هذا المبدأ .

الجرحى والممرضون

الشريعـة :

كان للمسلمين حرص شديد على هذا الحياد فكانوا لا يقاتلون أعزل أيا كان شأنه وتاريخهم مفعم بمثل ذلك ، بل بأخبار معونتهم لمرضى الأعداء وجرحاهم لاسيما فى الحروب الصليبية .

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العسفاء والوصفاء ، والعسفاء « المستخدمون » والوصفاء « المماليك » فيدخل فى ذلك الممرضون ورجال الصليب الأحمر .

القانون الدولى :

يجب حياد المستشفيات

تجب صيانة الأطباء والممرضين والجنود النقالة والكهنة ولا يجوز عدهم أسرى حرب .

الطرق المحرمة

الشريعـة :

لا يقتـل من أعطى الأمان ، ولا المستسلم إن كان قد أسـلم وداره دار الاسلام ، ويقر على ماملـكه من بلاد وأموال . وإن استسلم كافرا يقتل إن لم يحصل فى الأسر « وسـيأتى حكم الأسرى » . وإن استسلم باذلا مالا على ذلك يكف عن قتاله ، وإن استسلم جازت مهادنته ويكف عن قتاله وله الأمان

ويحرم مس العدو الأعزل ، ولا يجوز المثلة بالقتلى ، ولا الاحراق بالنار لحى ولا ميت ، ومن وصايا الرسول عليه السلام لجيوشه « لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » .

وإذا قصد بالقتال الردع لا يعتمد القتل وقد يجوز الإجهاز على جرحى المشركين والمرتدين فقط .

القانون الدولى :

يحرم جرح العدو إذا استسلم بأن كف عن القتال وقعد عن الدفاع ، وتجب معاملته كأسير حرب .

ولا يجوز إهانة العدو وتعذيبه ولو كان ذلك فى سبيل إجباره على إباحة أسرار دولته .

لا يجوز الإجهاز على الجرحى .

وقد عممت ما كان يفعل فى الحرب الأخيرة .

الأمان

الشريعـة :

يبذل الأمان كل مسلم رجلا كان أو امرأة حرا أو عبدا لقوله عليه السلام « المسلمون تتـكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم

القانون الدولى :

لا يحق لأى قائد كان أن يعلن عدم إعطاء الأمان للعدو المقاتل سواء كان السبب بغضا أو انتقاما أو تهويلا .

يسعى بذمتهم أدناهم» . وعلى الأمير إمضاء الأمان ولو كان أماناً من امرأة كما ذكر ذلك الفقهاء صراحة .

الحصار

الشريعة :

يجوز فى حصار العدو نصب العرادات والمنجنيقات ، وعمل كل ما يستضعفهم ليظفر بهم عنوة ، ولا تقطع نخيلهم ولا تسمم مياههم .

القانون الدولى :

يجوز التضييق على المحصورين وتعجيزهم حتى يضطروا إلى التسليم مقهورين

القتلى

الشريعة :

يحرم التمثيل بالقتلى وإحراقهم بالنار وما إلى ذلك . وتجب مواراة من قتل منهم عن الأبصار ، ولكن لا يلزم تكفينه ، وكذلك قتلى المسلمين لا يغسلون ولا يكفنون إلا بثيابهم تكريما لهم وإجراء لحكم الحياة فى حقهم .

وكانوا يتحاجزون ويمتنعون عن القتال ليلا فيدفن كل قوم قتلاهم .

القانون الدولى :

تجب صيانة جثثهم وحرمة أبدانهم ، فلا يجوز سلب ما عليهم أو تفتيش جيوبهم ، بل يجب إعادة ذلك بواسطة حكوماتهم (ولا يخفى ما فى تنفيذ هذا الأمر بالدقة من الصعوبة) . ويجب دفن القتلى باحترام ، وذلك فرض على الراكز فى ساحة القتال وكثيرا ما يتهادنون حتى يدفن كل فريق قتلاه .

الرهائن

الشريعة :

تؤخذ الرهائن عند الهدنة توثيقا لهم وإلزاما بها ، ولكن إذا نقضوا العهد لا يقتل من بأيدينا من الرهائن، وقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية وفي يده رهائن ، فامتنع المسلمون جميعا من قتلهم وخلوا سبيلهم ،وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر ! وقال عليه السلام أدالأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك .وتطلق الرهائن إذاوقع قتال ويبلغون مأمنهم .

القانون الدولى :

لا يحق للعدو الغالب أن يرتهن عنده فردا أو أفرادا لكى يحمل سكان مدينتهم على إتيان أمر ما . تلك عادة قديمة قد حرمها المتمدينون وإذا شق السكان عصا الطاعة وأثاروا الناس على العدو المحتل فلكل قائد حرية العمل بما يراه تبعا لظروف المكان والزمان ، وله معاقبة من أفشى سرا من السكان ومجازاته سواء كانت إباحته عمدا أم جهلا أم سهوا .

هذا بعض أدبهم فى قتالهم ، فلنرفع الرؤوس فخرا بذلك السلف ، ولندفع عن ذلك الشرف الموروث .

ترى مما جئنا به أن الحروب لم تكن غاية ولم يكونوا يرمون إلى إبادة العدو ومحوه ، ولكن إرهاقه حتى يسلم ويترك لهم قياده وهم بعد يستحيونه ويمهدون لراحته ويتركونه يعيش وحده . وأنت أعزك الله — ترى فى هذه الحروب الحديثة لاسيما هذه الفاجعة الأخيرة روح الهمجية الأولى ، فالعدو يرمى إلى محو عدوه ، ويطارد الغالب والمغلوب حتى يبيده .

والقانون الدولى وإن ظهر من مواده للنظرة الأولى رحمة غالبة وحنان بالإنسانية فهو قانون لا تقوم على إمضائه قوة . ولا كذلك أحكام الشريعة الإسلامية وآدابها ، فإن لها قوة من قلوب أهلها واعتقادهم ، ومن ذا الذى يقاتل احتسابا

وابتغاء الأجر ، ويسمع قوله عليه السلام « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة » ثم يقتل أو يعذب أو يخالف ؟ ! .

ومتى اجتمع عدل القانون وطيب النفس، فليست الحرب إلا مجاهدة ساعة ثم تنقضي وذلك يخفف شيئا ما من بلاء الانسانية مادام لا بد للخير من شر يحوطه ، ولا بد لصلاح الناس من ضحايا تذهب فداء الجماعات ، وتلك سنة قد خلت ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وفقنا الله للنسج على منوال هذا السلف الصالح والعمل لاستعادة ذلك المجد الضائع ، فعلى ماضينا نقيس مستقبلنا ، والله المستعان .

السلم

السلم

السلام تحية البشرية ، وشمار هذه الأمة

أريد لأحدثكم عن الحياة الفاضلة الخيّرة كما رسمها القرآن للإنسانية ؛ عن الغاية العليا ، والأمل الأسمى ، الذى يراه القرآن غاية لحياة الفاضلين ، وأملا للصالحين الطيبين من بنى آدم .

نريد لنتفهم أغراض القرآن البعيدة ، ومراميه السامية ، فلا نكتفى بالفهم السطحى لمعانيه ، ولا بالتفسير البسيط لمفرداته ، لأن لهذا الكتاب المعجز مغازى حكيمة فى اختيار اللفظة ، وتأليف الجملة . . مغازى لا يكفى فيها الفهم السطحى ولا التفسير البسيط . . على أنا لن نأخذ فى ذلك إن شاء الله ، إلا بما تحسه الفطرة النقية ، وتجده النفس الحساسة ، من قرب وفى سهولة ؛ لن نأخذ بشىء من التكلف ، ولن نقصد إلى شىء من الإغراب أبداً .

والآن نبدأ بدءاً يسيراً سهلا ، من تلك الكلمة الخفيفة ، « كلمة السلام » تحية الإسلام التى يرددها الناس فى أقطار الأرض ، مئات الملايين من المرات كل يوم ... وإنما أبدأ بهذه التحية ، لأنى منذ اتجهت لمحاولة هذا الفهم أحسست بدافع خفى غالب ، لم أملك رده ، ولم أستطع إهماله ، يدفعنى إلى إطالة التأمل فى هذا الأدب الإسلامى الذى آثر تلك التحية وخلدها ... ويغرينى بأن لهذا الاختيار مغزى اجتماعيا بعيدا ، ومعنى إنسانيا لابد أن يكون كبيرا ، فمضيت أفكر فى هذه التحية من نواحى مختلفة ، لأرى أين ينتهى بى التفكير .

تأملت فى هذا السلام ، فإذا المحدثون يقولون : إن السلام شمار هذه الأمة ، وإذا نص الحديث : أنه تحية البشرية التى علمها الله لآدم ، تحية له ولذريته ، إفشاؤه والجهر به لازم ؛ يبدأ به من المتلاقين أطوعهم لله ، يلتزم فيه لفظ السلام حتى لا يجب الرد على من سلم بغير هذا اللفظ .

ثم هذا الإمام البخارى يقول فى عبارة رائعة : « السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وضعه الله فى الأرض فأفشوه بينكم » ؛ وينقل قول أبى بكر (رضى الله عنه) : السلام أمان الله فى الأرض .

والسلام هو ما يهتف به المسلم مرتين ختاما لكل صلاة فرضا أو نفلا ... كل هذا شعور قوى بنعمة السلام ، وإدراك صحيح لمعناه .

ذهبت بعد ذلك أتعرف إحساس اللغة بلفظ السلام ، وما تثيره هذه الكلمة من شعور ، وما لها من وقع على النفس ، فوجدت اللغويين يقولون : السلام شجر ليس بذى شوك ، زعموا أنه أبداً أخضر . . لا يأكله شيء . . تستظل به الظباء ، ولا تسكن فيه ، يصبى الناس حسن الظباء تحت ظلاله .

معان شعرية كرفيف النسيم ، تجعل من شجر السلام هذا رمزا لسلام الحياة يفضل غصن الزيتون الذى يذكرونه .

ثم تقول اللغة : السلام البراءة ، والسلامة من جميع الآفات ، والسلام والسلم واحد ، ضد الحرب ، هو الصلح . ويحكى اللغويون أن العرب فى الجاهلية ، كانوا يحبون أن يقول أحدهم لصاحبه : أنعم صباحا ، وأبيت اللعن . ويقولون سلام عليكم ، فكأنه علامة المسالمة ، وأنه لا حرب هنالك . ثم جاء الله بالإسلام فقصروا على السلام ، وأمروا بإفشائه .

هذا هو إحساس اللغة بالسلام وتفسيرها له .

* * *

فلننظر ما الذى يوحيه استعمال القرآن الكريم للفظ السلام ؟ وما الإحساس الذى يريد الإسلام أن يؤصله فى قلوب المسلمين حين يورد هذه اللفظة ، وحين يؤدبهم بهذا الأدب ؟

ورد السلام فى القرآن اسما لله تعالى « هو الله الذى لا إلـه إلا هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ... الحشر : ٢٣ » وفسروا هذا الإسم بأن الله

هو المسلِّم لعباده ، ليس فى الوجود سلامة إلا وهى معزوة إليه ، وصادرة منه .

واستمع للامام الغزالى روّح الله روحه ، إذ يجعل « السلام » وصفاً للعبد نفسه أيضاً فيقول : كل عبد سلم عن الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبُه ؛ وسلمَ عن الآثام والمحظورات جوارحه ، وسلم عن الانتكاس والانعكاس صفاته ، فهو الذى يأتى الله بقلبه سليم ، وهو السلام من العباد ، القريب فى وصفه من السلام المطلق ، الحق الذى لا مثنوية فى صفته .

هذا . . ومن استعمال القرآن للسلام أنه يسمى به الجنة « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ـ الأنعام : ١٢٧ » وحيثما ذكرت هذه الدارفى القرآن بلفظ « الدار » ، أضيفت إما إلى ساكنيها فسميت« دار المتقين » وإما إلى معنى البقاء المستقر الآمن من المفاجأة ، فسميت « دار الآخرة » « الدار الآخرة » أو« دار الخلد » أو « دار المقامة » أو« دار القرار » فلم تضف إلى النعيم أو الجزاء أو الثواب مثلا فى القرآن كله ، لكنها أضيفت إلى السلام أكثر من مرة ، ويقول المفسرون : إنها فى قوله تعالى « دار السلام » مضافة إلى اسم الله تعالى للتشريف والتعظيم .

ونقول : هذا حسن ، ولكن ألا يبقى بعد ذلك أن نعرف سر تخصيصها بالإضافة إلى هذا الاسم من بين أسمائه تعالى ؟ فقد كان يمكن أن تسمى دار الله أو دار الرحمن أو دار الكريم أو دار المنعم ، أو مايشبه هذا . لكنها إنما أضيفت إلى اسم « السلام » بخاصة ، وهو مصدر الأمن ، والسلامة ، والسلم . إن هذا التخصيص مقصود لغرض واحد سنراه واضحا ؛ ولم يرد القرآن أن يسمى الجنة دار السلام أى دار الله ، لأنه يقول فى الآية بعد ذلك « عند ربهم » فهل يقول : لهم دار الله عند ربهم ؟ . لا ... والأقرب لروح الإسلام السامية ، أن السلام فى وصف الجنة بأنها دار السلام ، هو السلامة من كل آفة وكرب . فالجنة دار نعمة السلم والأمن ، «دار السلام» ؛ سلام يكفله الله لأهلها بقوله فى الآية نفسها : « وهو وليهم » أى حاميهم وناصرهم فى دار السلام التى هى عنده عز شأنه .

وكذلك سميت الجنة دار السلام فى قوله تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ـ يونس : ٢٥ » الله يدعو إلى دار السلام ، يدعو إلى دار السلم والأمنة ... والتعبير بأن الله يدعو ، لم يرد فى القرآن إلا مرتين إحداهما « والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ـ البقرة : ٢٢١ » والثانية : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم يونس: ٢٥ » دعوتان : إلى السلام وإلى المغفرة ، فما أعظم الداعى وأبره ، وما أنبل الدعوة وأكرمها ، وما أحوج المدعوين إليها وأفقرهم !!

واعتبار السلام سمة الجنة ونعمة الآخرة ، مما تأيدت ملاحظته فى مواطن كثيرة من القرآن . فهو يقول عن أهل الجنة : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ـ الأعراف : ٤٣ » ويقول : « إن المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ـ الحجر : ٤٧ » . ولا عجب فإن أصل السلام والأمن ، ذلك السلام النفسى ، وبراءة الصدر من الغل .

وكم ورد فى القرآن ذكر السلام عند الحديث عن الجنة وأهلها ! استمع قوله تعالى: «تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما ـ الأحزاب: ٤٤» أى تحية هؤلاء المؤمنين يوم القيامة فى الجنة سلام ... يقول بعضهم لبعض : أمنة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل ... هكذا يفسرها ابن جرير الطبرى ، مؤيدا قوله بالآيات الأخرى مثل « دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ـ يونس: ١٠» و« يلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ـ الفرقان : ٧٥ » .

يلقون فى الجنة هذا السلام الذى هو ميزة الجنة ، وسمة الجنة ، وما أكثر ما يرد فى القرآن دعاء الملائكة لهم بهذا الأمن والسلام ، وتحيتهم بالسلام ، من مثل قوله تعالى « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا

الجنة بما كنتم تعملون ـ النحل : ٣٢» وقوله : «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ـ الزمر : ٧٣ »

* * *

إن السلام اسم الله ، وإنه الاسم الذى يمكن أن يوصف به العبد التقى النقى السعيد . والسلام الاسم الذى وسمت به الجنة وميزت ، والسلام بأكمل معانيه هو ميزة نعيم الجنة ، ونصيب الأتقياء الطائعين ، يدعو به بعضهم لبعض ، فإذا كانت الآخرة السعيدة الهانئة الناعمة الخالية من الأكدار والآلام ، إنما تمتاز بما يسودها من السلام ، فماذا تكون ميزة الدنيا السعيدة الهانئة إلا أن تنال من هذا السلام أوفر ما تستطيع من حظ ونصيب ، وتشبه فى ذلك دار النعيم ، وجنة الآخرة ، وحياة الخلود الأبدى ؟

* * *

آن لنا الآن بعد الذى مضى أن نسأل : هل الإسلام حريص على هذا السلام ؟ هل الإسلام يمنى الدنيا بهذه الغاية من السلام ؟ هل الإسلام يشعر الإنسانية بنعمة السلام ؟ فأجيب أن نعم ، نعم ، الإسلام دين السلام ، لا بما جعل للسلام من شأن فى الآخرة ، وما ميزبه نعيمها وجنتها فحسب ؛ كلا ... بل هو دين السلام بالدعوة الجاهرة إلى السلام ، فى هذه الحياة نفسها . فاستمع قوله تعالى : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم المائدة : ١٦ » هذا الإسلام سلام ، ونور وصراط ، مستقيم . وتبارك الله الحكيم الخبير ، يتحدث برسالة الإسلام من

السلام والنور إلى من ؟ إلى أهـــل الـكتاب يجاهرهم بأن هذا الرسول قد جـاء ليبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الـكتاب فالأديان رسالات سـلام ، وليس ينـكر أحد على هذا الإسلام دعوته الجهيرة إلى السلام ، وليس يحـل لأحد أن يخفى من أمر الأديان هذه الدعوة إلى السلام ، وليست دعوة الإسلام قاصرة على هذه الآية الـكريمة ، بل ترى لها الشواهد الـكثار فى القرآن الـكريم ، فاتل معي قوله تعالى فى ليـلة القدر ، حين وصفها بأنها خير الأوقات فقال : « وما أدراك ما ليـلة القدر ... ليلة القدر خير من ألف شهر القدر : ٢ ، ٣ » حين يختم وصفها بقوله : « سلام هى حتى مطلع الفجر القدر : ٥ » فامتاز خير الأوقات بالسلام .

واعتبر بحديث القرآن عن المؤمنين ، وما ينبغى أن يكون خلقهم وشأنهم فى قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما الفرقان : ٦٣ » هكذا يهتف المؤمن بالسلام حين يفجؤه الجهل ، ويلقاه الحق ، ويبدؤه الأغرار بالشر .

* * *

أرهفوا الحس ، تتذوق إنسانيتـكم الرفيعة ، روحانية علوية ، وأريجا سماويا فى هذه الآية ، يفيض من قوله تعالى « يمشون على الأرض هونا » هونا فى غير عجرفة ولا طغيان ، « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

وإنى لأقول مطمئناً بعد كل ذلك : إن الغاية الخليقة للحياة فى نظر الإسلام هى السلام . وإن هدف البشرية الـكاملة عند الإسلام هو السلام ، وإن نور الإسلام وكتابه المبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام .

إن هذا السلام يأسو جراح الإنسانية ، ويسعفها فى صراع الغرائز وقتال الشهوات .

إن هذا الإسلام الديني يمسح فى رفق جبين الإنسانية الذى يرفضّ عرقا من كدها المتناحر ، وكفاحها المتهالك .

إن هذا السلام الدينى ليربت فى حنو على كتف الإنسانية التى أثقلتها الشهوات ، وبهظتها الأطماع .

وإن الإسلام بهذا السلام ليملأ أسماعها بلحن روحانى ، سماوى النغم ، إلهى الوقع ، ملكى الصوت ، يهدىء أعصابها المجهدة ، ويخفف آلامها النفسية ، من عثرات الحياة وصدماتها ...

تلك رسالة الأديان ، وتلك رسالة الإسلام ، وتلك أخلاق القرآن ...

* * *

لكأنما تتجاوب الأصداء بهمهمة ناس يقولون فى عجب : أو هذا هو الإسلام ! !

أهذا هو الذى روج له المروجون عن الإسلام ! ؟

ليكن ما أذيع عن الإسلام غير ذلك ، وليكن ما أشيع وروّج من الإسلام نقيض ذلك ؛ فإن هذا ما ينطق به القرآن ، وما تجهر به آيات الإسلام البينات .

هذا الإسلام الذى أحب الرجولة الجادة ، وكره العبث اللاهى ، وأثار فى أهله روح البطولة وحمية الكرامة ، هو هو الذى علمهم أن السلام اسم الله ، وأمرهم أن يفشوه فى الأرض .

هذا الإسلام الذى جند من أتباعه أنصارا للحق ، وقوة للخير ، وأمرهم أن يقاتلوا الباطل فى غلظة ، هو هو الذى وصف عباد الرحمن بأنهم يمشون على الأرض هونا ، وإذ خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، وهو هو الذى أمرهم بأن يصبحوا الناس ويمسوهم بالسلام ، وأن يلقوهم فى الغدو والرواح بالسلام !

هذا الإسلام الذى لقى الاعتداء بالاعتداء ، وأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، هو هو الذى يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام ، وهو الذى جعل السلام شعار هذه الأمة .

الرحمة

القرآن . . والإسلام صورة إلهية

إنى إذ أتحدث فى هذا السلم إنما أحاول مطلبا كريما ، وأبتغى مرمى بعيدا ، فأوثر من أجل ذلك أن أصف خطتى ، وأسلوب تناولى ، وذلك أنى إذا ما قلت « القرآن » فإنى لأقدّر أنه الأصل الأول من أصول الإسلام ، ومصدر الفكر الأساسية والقواعد الكبرى للإسلام ... على أن يعرف أنى إذا ذكرت الإسلام فلن أريد ذلك المعنى الهين المحدود ، ولن أشير إلى هذا المفهوم الضيق ، الذى يتبادر غالبا الى ذهن الرجل العادى ، من كلمة « الإسلام » أو كلمة « الدين » ... لن أريد تلك التفسيرات الملتوية المبهمة ، لمجموعة من العقائد الغامضة ... لن أريد تلك الإضمامة من الرسوم والشعائر الشكلية ... ولن أريد تلك التفريعات المادية التى تجعل لصنف من الناس ، دون غيره ، سمات وميزات خاصة ، وتعطيه من الحقوق ما ليس للآخرين ، أو تؤهله لواجبات ليست لسواه ، فهى تفكر فى خيره ومصلحته منعزلا عن الدنيا ، منقطعا عن سائر الناس ، مستحلا ما للآخرين ، مستأثرا بكل كرامة ، إلى مثل ذلك مما يسمى دينا ! فزرع الضغينة فى قلوب الناس، وفرق بين أبناء آدم ، أو زادهم افتراقا على ما بهم من أسباب الافتراق والاختلاف كلا ... لا أريد شيئاً من هذا فى معنى الإسلام ، وإنما أريد « بالإسلام » ذلك النظام الاجتماعى الشامل الكامل ، الذى واجه مشكلات الحياة عند الفرد ، والأسرة ، والأمة ، والإنسانية جمعاء ، فوضع لها حلولا جريئة واضحة ... أريد « بالإسلام » ذلك النظام الاجتماعى الذى يقرر أصول التدبير لحياة فاضلة سعيدة ناجحة ، محترما فى ذلك الواقع الفعلى ، محكما نواميس الكون وسنن الفطرة ، لا أوهام الواهمين وظنون الظانين. أريد « بالإسلام » ذلك النظام الاجتماعى الذى يعتبر العقيدة وسيلة للسلام النفسى ، والطمأنينة القلبية ، والراحة الوجدانية ،

والذى يطلب العبادة رياضة تحقق حياة طيبة ، وتكوّن نفسا خيرة ، وضميرا يقظا حساسا ... ! أريد « بالإسلام » ، ذلك النظام الاجتماعى الذى يرى الدنيا وحدة متماسكة ، يتأثر مجموعها بأصغر ما يتأثر به أهون أفرادها وأدق أجزائها .

فلئن قيل : إنى بذلك إنما أنظر إلى روح الإسلام السامية ، لا إلى شكله السطحى ، مستمداً تلك الروح من « القرآن الكريم » .. وإنما أحاول فهم مرامى الإسلام البعيدة لا تفسير عبارات وشرح ألفاظ ، مهتدياً فى ذلك بهدى « القرآن الكريم » ؛ وإنما أبتغى فهم التدبير الدينى الإسلامى للحياة ، لا التعبد الفردى الجزئى ، مستنيراً فى ذلك بأضواء القرآن الكريم ... إن قيل شىء من ذلك ، فهذا وما يشبهه من تعبير ، صادق فى بيان ما أحاوله فى تلك الأحاديث عن أخلاق القرآن .

وأعترف ، أن ما أحاول من أغراض فى هذه الأحاديث ليس هكذا سهلا سائغاً عند جمهرة الناس ، ولا هكذا خفيفا قريبا من أفهام الكافة ، حتى تناله الأذهان جميعا من قرب ؛ كلا ... بل أعترف — أكثر من ذلك — بأن ما أحاوله من هذا التحدث عن القرآن ، وما أعرض له من موضوعات ، وما أتناوله به من أسلوب ، ليس قريب المراجع ولا موفور المصادر ، ولا يسير الشأن علىّ أنا ، بل هو كاد مجهد !! ولكن ، لماذا أحاول هذا مادام شأنه كذلك عند عامة الناس ، وما دام غير معبّد ولا مقرب لى ؟ لا أتردد حينما أجيب عن هذا السؤال ، فى أن أقول جهرة وبكل الصراحة ، أنما يدفعنى إلى ذلك أن الثقافة الدينية الإسلامية فى مصر — بل فى العالم الإسلامى كله — تحتاج إلى مثل هذه المحاولة . نعم ! فإن الثقافة الدينية اليوم ، إنما يتوافر الجهد فيها على التحدث إلى العامة البسطاء ، فى أمور سهلة قريبة . كأنما الدين حاجة نفسية للبسطاء والسذج فقط ، وهو فى الحق حاجة نفسية للناس جميعا على اختلاف مداركهم ، ومهما ترتق عقولهم ، وتتسع آفاقهم ويتحرر تفكيرهم ، فلابد أن نحاول الوفاء بهذه الحاجة النفسية .

وفى سبيل تحقيق هذه المحاولة ، بدأت الحديث عن السلم بتحية السلام ، مقدراً أن هذه التحية الإسلامية التى جعلت شعاراً عاما وهتافا مرددا ، لابد لها من صلة بغاية الحياة فى نظر الإسلام . على ما مضى من بيان ذلك .

والرحمة قرينة السلام فى الشعار الإسلامى ، وهذا يلفت النظر إلى التحدث عن الرحمة فى تناول القرآن .

وإن الرحمة من المواد التى كثر استعمال القرآن لها فى صيغ مختلفة ، حتى ذكرت فيه بضع مئات من المرات . ومن مادة الرحمة ، اشتق اسمان من أسماء الله تعالى : هما ، الرحمن ، الرحيم ولقد نجد اسمين من أسماء الله ، متحدى المادة مع اتفاق المعنى ، كالغفار والغفور ، والقادر والمقتدر ، والحكيم والحكم ، والولى والوالى ، والعلى والمتعالى ، أو نجد اسمين من مادة واحدة مع اختلاف المعنى ، كالعزيز والمعز ، والغنى والمغنى ، ولعل اسمين من هذه الأسماء الواحدة المادة مع اتفاق المعنى أو اختلافه ، لم يجتمعا متقارنين متلازمين مثل اقتران اسميه من الرحمة : الرحمن الرحيم ... ولقد جهد المفسرون فى بيان وجه هذا الاقتران ، والتماس الفرق بين الصيغتين ، وأتوا من ذلك بالكثير الذى تجده فى مواطنه ؛ ومع ذلك ، لا يزال فى الميدان مجال فسيح للتفكير المبتكر .

قد اجتمع وصفا الرحمن والرحيم ، اجتماعا يلفت النظر فى التسمية : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهى التى استصحب المسلمون كتابتها فى أول كل شىء ، وقالوا إنه يندب ذكرها فى أول كل فعل من أفعال الدين والدنيا — قرطبى ٩١/١ ، ٩٧ — وهذه البسملة آية من القرآن لا شك ، وإن بحثوا فى أنها آية من كل سورة أولا ، فقد اتفقوا على أن هذه البسملة تاج سور القرآن ، وكتبوها فى أول السور بكل مصحف — إلا واحدة — وقالوا إن هذا القرآن عنوانه « بسم الله الرحمن الرحيم » — الفخر ١٧٢/١ فالبسملة هى الشعار الاسلامى الثانى ، والدعاء المردد كذلك — وفى هذا الشعار الإسلامى والهتاف المكرر ملايين المرات كل يوم ، يجتمع وصفا الرحمن والرحيم دون غيرهما من الأوصاف والأسماء

— وهما — كما يقول ابن عباس — اسمان رقيقان ، اشتقا من الرحمة على وجه المبالغة . هما اسمان يثيران فى النفس معنى من الرقة والرفق ، والشعور النورانى ؛ وقد انتبه المسلمون لذلك تماما ، وأحسوا به إحساسا قويا ، فتراهم يقولون إنهم لم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم فى أول سورة التوبة ، لأنها مشتملة على الأمر بالقتال. كما يقولون إنهم لم يجعلوا من السنة تسمية الذابح بهذه البسملة ، بل بقوله : باسم الله ، الله أكبر ، لأن وقت القتل والقتال لا يليق به ذكر الرحمن الرحيم . وهذا ولا شك أثر لدقة الحس بمعنى الرحمة ، ووقع هذا الشعار الإسلامى على نفس قائله وسامعه .

فإذ جاوزنا هذا إلى ما تحدث به القرآن عن رحمة الله ، وجدناه يورد من ذلك المطمع المسعد ، ويصف هذه الرحمة الإلهية وصفا يفيض تجليا ورقة ، فكما جمع فى الشعار الشائع بين وصفى الرحمن والرحيم ، وضع فى وصف نفسه إلى جانب الرحمة ألوانا أخرى من الفيض والبر والتلطف ، فهو الغفور الرحيم ، أو الغفور ذو الرحمة : وهو التواب الرحيم ؛ وهو البر الرحيم ، وهو تعالى أرحم الراحمين وهو خير الراحمين ؛ وقد ذكر سعة رحمته وشمولها بأكثر من صيغة : « ورحمتى وسعت كل شىء — ربكم ذو رحمة واسعة — ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » وهو تعالى يطمع فى هذه الرحمة ، ويحض على عدم القنوط منها : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم — مريم ٥٣ » « قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون — حجر ٥٦ » وهو يعبر عن التزامه الرحمة ، بما لم يعبر به فى جانب نفسه عن شىء آخر ، إذ يقول تعالى شأنه : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة — إنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ، فإنه غفور رحيم » يقول كتب على نفسه الرحمة ومن هذا وأمثاله يقول المفسرون : إن كل أحد غير الله إنما يعطى ليأخذ عوضا ، أما الحق فإنه كامل لذاته ، فيستحيل أن يعطى ليستفيد به كمالا ، فكان الجوادُ المطلق ، والراحم المطلق ، هو الله تعالى — نخرج ١ ص ١٦٦ .

إن الباحثين غير المتدينين ، ينظرون من وصف الإله فى الأديان ، إلى اعتبارات يحكمون بها على روح الدين وإنسانيته ؛ هذا إله سريع الغضب عنيف البطش ، وهذا إله ظامىء للدم ، وهذا إله يطلب قتل مخالفيه ، وهكذا ... فليت شعرى ماذا يقولون فى وصف القرآن إلة الإسلام ، ووصف إله الإسلام نفسه ؟ بل ماذا يقولون فى وصف إله الإسلام رسوله بمثل ما وصف به الإله نفسه ؛ رءوف رحيم ؟ « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

إن الحياة لتصيب خيرا كثيرا بهذه الرحمة والتراحم ، ولكننا نقف عندما انتبه إليه الباحثون المسلمون من معان اجتماعية ، واعتبارات خلقية عالية فى هذه الرحمة ، فمن ذلك ، أنهم يقولون : إن كمال العبد وسعادته فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته وأسمائه ، فاستمعوا إلى الغزالى — طيب الله ثراه — إذ يقول فيما يبين من تلك الحظوظ : « حظ العبد من اسم الرحمن أن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء ، وأن تكون كل معصية تجرى فى العالم ، كمعصية له فى نفسه ، فلا يألوا جهدا فى إزالتها بقدر وسعه . وحظ العبد من اسم الرحيم ألا يدع فاقة لمحتاج إلا سدها بقدر طاقته » . فأكبر بهذا الشعور الاجتماعى الكريم ؛ الذى يرى كل معصية تجرى فى العالم ، كمعصية له فى نفسه ، فلا يألو جهدا فى إزالتها بقدر وسعه ، ولا يدع فاقة لمحتاج . إلى هذا الشعور الاجتماعى ، حتى ندرك من قرب وفى وضوح ، صلتنا بأمتنا وجماعتنا ، وتأثرنا المباشر بما ينالها من خير أو شر ، وقوة أو ضعف .

ومن لمحات الباحثين الإسلاميين فى الرحمة ، ما يقوله الفخر الرازى — رحمة الله — فى تفسير البسملة ، مخاطبا البشرية فى شخص فرد من أفرادها : « لما وفقك لذكر هذه الكلمة فى كل يوم ، سبع عشرة مرة فى الصلوات المفروضة ، دل على أنه ما خلقك للقتل والعذاب ، وإنما خلقك للرحمة والفضل والإحسان » . فاستمع . . ماخلقك للقتل والعذاب ، وإنما خلقك للرحمة والفضل والإحسان :

تلك غاية الحياة ، وهدف الوجود ، وغرض الإنسان الراقى . . لا تذكر به الصلوات المفروضة سبع عشرة مرة كل يوم فحسب ، بل تذكر به الصلوات المطلوبة — ولو غير مفروضة — مثل هذه المرات ، كل يوم ، وأكثر منها — تذكر به عنونة القرآن بالرحمة ؛ يذكر به كل ابتداء بالتسمية الرحيمة ، تذكر به كل تحية متبادلة بالسلام والرحمة ، يذكر به ما يروى من مثل الأثر القائل : إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف — ابن كثير ج ١ ص ٤٠

* * *

هذه الرحمات القرآنية أجنحة من النور ، يمنحها القرآن للأرواح السامية مثنى وثلاث لتلحق فى أجواء السماوات ، وتشرف على آفاق الرضوان ، وتغرد بتسبيحات الملائكة .. والقرآن مع ذلك واقعى لا ينسى واقع الدنيا الأرضى ، ولا يهمل شاهدها المادى ، بل يشرع لذلك كله وينظمه ، وهذا حين تراه يجمع الرحمة والعذاب ، وإن قدم الرحمة : « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » وحين يقول لموقعى العذاب على من ظلموا أنفسهم « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وحين يصف المؤمنين بأنهم « أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » وتلك هى خطة القرآن فى رياضة الحياة ، ومذهبه فى تكوين الخليقة الإسلامية ، والرجولة القرآنية . تلك طريقته التى أستطيع أن ألخصها فى أنه : واقعى يقدر الواقع وينظمه ، على حين هو مثالى يرنو إلى المثل الأسمى ويلهمه ، والإنسانية بين هذين تصل إلى ما تناله قواها ، ويسعفها عليه جهادها ، ويبلغ إليه نهوضها ، والويل لها حين تسف فتخلد إلى الأرض ، فى حيوانية مادية مدمرة .

هذا القرآن إلـه السلام ، إلهه الرحمن الرحيم ، الذى كتب على نفسه الرحمة .

هذا القرآن ، عنوانه بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه يهدى الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

هذا القرآن ، يسمى مقر نعيمه ، ومهبط رحمته فى الآخرة ، دار السلام التى يدعو الله إليها .

هذا القرآن ، يصف عباد الرحمن بأنهم رحماء « يمشون على الأرض هونًا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

هذا القرآن ... تحيته السلام ، وشعاره الرحمة ، وبدؤه كل عمل بالرحمة ، وهو بكل أولئك ، يغرى الإنسان بالسلام والرحمة ويهتف به ليسمو إلى ذلك فى فهم صحيح للواقع ، وإدراك دقيق لحاجة الحياة ...

فإذا ما تحركت ألسنتكم بالسلام كل يوم مرارا ، وإذا مارنَّ فى أسماعكم ذكر الرحمة والسلام مرارا ، فإنما ذلك إغراء لكم بأن تستكملوا حظكم الأوفى من السلام والرحمة ، وتزجوا حياتكم فى هذا السبيل ، أتمنى لكم أكرم نصيب من ذلك .

بين الحرب والسلم

كيف يروض الإسلام الحياة ؟

لمسنا حنين الإسلام إلى السلم ، وتلونا آى الكريم فى ذلك . فكأنها من سحر البيان ليست حروفاً وألفاظاً ، بل أشعة نور تفيض من سماء الرحمة ، وتلمع فى أفق الرضوان ... ثم ما عتم الواقع الأرضى المادى بقسوته . أن لفتنا إلى أن لفظ القتل والقتال ، ليس قليل الدوران فى القرآن ؛ وأن هذا السلام القرآنى ، لم تفارقه الحرب الضروس ، ولم يخلص من القتال الشرس ؛ فتواعدنا الموافاة ، لنفهم كيف جمع الإسلام بين هذه الحرب ينظمها ، وهذه السلم يرنو إليها ويدعمها ؟...

كيف راض القرآن الحياة ؟ كيف دبر لها طريق الوصول إلى غايتها السلمية التى أحبها لها ومناها بها ؟ وسبيل معرفتنا لطريقة القرآن ، فى سياسة الحياة وتنظيمها ، أن نعرف أولا : كيف أفهم القرآن أهله تلك الحياة ؟ كيف دلهم على طريق النجاح فيها ؟ ومن رأيه فى ذلك ندرك فى وضوح سياسته للدنيا ، وأساس تنظيمه لها ، ونكشف عن خطته فى كل أولئك وطريقته .

إن النظرة الفاحصة لهذا القرآن ، لتدلنا على أنه يصرح أن الحياة منظمة بنواميس عملية ، مضبوطة بنظم واقعية خارجية ؛ والنجاح فيها ، والظفر بخيرها ، والنصر فى جهادها ، إنما هو مرهون بعمل العامل الخارجى ، مترتب على كفاحه الفعلى ، مرتبط بإدراكه الصحيح لواقع الأشياء الكونية ، وتقديره السليم لنظم هذا العالم وتدبيراته ، ولن يغنى الإنسان عن ذلك شىء آخر من شئون اعتبارية معنويه ؛ أو نفسية روحية ، إلا إن قام ذلك على واقع ، وصار أمرا شاهدا وحاضرا ثابتا . فما عدا العمل ، من نية طيبة ، وسريرة خيرة ، وخلق كريم ، وعقيدة صحيحة ، إن كان وحده فقط ، وبلا عمل ، فلا جدوى له ، ولا أثر فى هذه الدنيا . وإن كان

مع العمل فنعم ... إن كان مع العمل فإنه يسدده ، ويوفق خطاه ، ويديم نجاحه بلا شك .. وإلا فلا ....

ومن هنا لا يحاول مؤمن الانتصار وهو نائم ، ولا يطمع متدين فى الظفر الدنيوى وهو غافل ، ولا يأمل كريم أن يسود بخلقه وهو قاعد ، بل أن يعمل هؤلاء عن خبرة ومعرفة ، وبصر ودقة فهم أهدى سبيلا وأنجح عملا من سواهم وظفرهم أبقى وأدوم ، وهم به أسعد وأهنأ ، وإلاّ ... فلا !!

ولهذا يقول القرآن بعد ما علم المؤمنين القتال ، إنه لو أحب الله أن ينصرهم بقدرته فيهلك خصومهم ، ويكفيهم الأمر بغير قتال لفعل ، ولكنه لا يشاء ذلك فاسمع هذا صريحا فى قوله : « ... فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض محمد : ٤ » أى ذلك هو الأمر ، أو افعلوا ذلك فى الحياة ، ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن... ليبلو بعضكم ببعض ... ولكن..رتب السكون على أن يظهر صلاح الصالح للحياة ، هكذا يقول المفسرون قديما . فاستمع للراغب الأصفهانى يفسر هذا الابتلاء بقوله: « إذا قيل ابتلى فلان بكذا وأبلاه ، فذلك يتضمن أمرين فى أحدهما ، تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره . والثانى ، ظهور جودته ورداءته ، وربما قصد به الأمران ، وربما يقصد به أحدهما . فإذا قيل فى الله تعالى : بلا كذا ، أو ابتلاه، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته ، دون التعرف لحاله ، والوقوف على ما يجهل من أمره ، إذ كان الله علام الغيوب . »

فلم يشأ الله — كما سمعنا — أن ينصر المؤمنين بمحض قدرته ، وعظيم سطوته وهم نائمون ... بل يظهر جودتهم ورداءتهم بمواجهة الحياة ... يظهر صلاحيتهم للحياة أو عدم صلاحيتهم لها ، بهذه الملاقاة ، كما يظهر بها أمر غيرهم ممن يلاقيهم.

وإنك لتقرأ بعد هذه الآية بقليل ، من السورة نفسها « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم — محمد : ٧ » فجعل نصرهم هنا بالعمل للنصر .

كما تقرأ منها قوله : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم ـ ٣١/٤٧ » . وفى غير هذا الموضع ، ينفى القرآن حسبانهم أن يدخلوا الجنة دون ابتلاء : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ـ ١٤٢/٣ » . بل حين يذكر نصر المؤمنين بالملائكة ، وإمدادهم بالقوى المعنوية ، لا تلبث أن تقرأ تعليقه ذلك على صبرهم فى البأساء : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ . بلى : إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ـ ١٢٤/٣ ، ١٢٥ » وهو يقرر اطراد هذا الناموس فى حياة غيرهم من الأمم ، فيحكى من أمر بنى إسرائيل مع موسى ، فى طريقهم إلى الأرض التى وعدهم الاستقرار بها ، أنهم لما قالوا لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون ـ ٥ /٢٤ » قال الله لموسى ، « فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ، يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ـ ٢٦/٥ » فناموس الحيـاة فى تعليم القرآن هو : الابتلاء لإظهار الصلاحية لها ، وبيان الجودة والرداءة ، وبهذا يفسر القرآن كثيراً من ظواهر حيـاة الفرد والجماعة ؛ « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا ـ ٧/١٨ » ؛ « الذى خلق الموت والحيـاة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ـ ٦٧ / ٢ » ـ وافتراق الأمم وتنافسها لإظهار صلاحيتها للحياة ، وتسابقها إلى الخيرات : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحـدة ، ولـكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا ـ ٥ / ٤٨ »

هكذا أفهم القرآن الحياة لأهله ، وأخذهم فيها بهذا الناموس العملى ، ولـكن قد أخطأ فى ذلك المتدينون من الناس ، كما أخطأ فيه غير المتدينين منهم ؛ أخطأ المتدينون إذ ظنوا أنهم ، إذا ما رددوا عقائد دين ، وأخـذوا أنفسهم برسوم عبادته ، وانتسبوا إلى أهله ، زياً وسمة ؛ كانوا أحبـاء الله وخلصاءه ، يحميهم من كل مغير ، ويسخر قدرته لصد كل عاد عليهم وطامع فيهم ،

ويذلل لهم الدنيا فتأتيهم منقادة ... وكذب وهمهم ، فإنما الحياة فى نظر القرآن ما سعتم ، وإنما دستوره : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وأما خطأ غير المتدينين ، فهو رميهم الأديان ـ ومن بينها الإسلام ـ بأنها تمنى أهلها بالمعجزات ، وتكلهم إلى المفاجآت ، وتغريهم بالمغيبات ، وتطمعهم فى كرامة تسخر لهم قوى الكون ، فيواجهون الحياة غير مسلِّمين بأن لها نواميس مطردة ، ولا مقتنعين بأن فيها نظما ثابتة ، فهم يقاتلون بالتسبيح ، ويغزون بالترتيل ، ويستنصرون بالأمانى. وكذب وهم المدعين ذلك . فالأصل القرآنى هو ما سمعنا : « ولكن ليبلو بعضكم ببعض » ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض » . وإنه لمن طريف المناسبة أن الآيات التى تقرر هذا الأصل فى وضوح إنما هى من السورة التى تحمل اسم محمد عليه السلام ، سورة عدد آياتها ثمان وثلاثون آية ، ورد فيها ذكر الأعمال والعمل وما يتصرف من هذه المادة اثنتى عشرة مرة ، فهى سورة الجد فى الحياة ، كما سميت سورة القتال ، ولا غرو أن يتقرر فيها ذلك الناموس الاجتماعى جلياً جهيراً .

هذا الذى فهمنا من نظر القرآن للحياة ، وإفهامها لأهله ، يهدينا إلى فهم علاجه لضعف الحياة ، وطريقته فى التدرج بها إلى مدارج الرقى والكمال ، حتى تبلغ أقصى ما تستطيعه من السلم الذى مناها به وحببها فيه . وحتى لتحقق لها الروحانية التى مثلها بقوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ..»

طريقته فى هذه الرياضة أن يبدأ واقعياً عملياً ، فى علاج الحياة ؛ كما رأيناه واقعياً عملياً فى فهم الحياة . ثم يتقدم فى تلك الرياضة ، مثالياً كمالياً ، مستشرفاً للمثل الأسمى والكمال المرجو .. يبدأ عملياً ، يقدر ما عليه حال الناس وعملهم ، لا ينساه ولا يتناساه ، فلا يهمله ... ويتدرج مثالياً ، فيقدر الصورة الكاملة لإنسانيتهم ، والغاية السامية لوجودهم لا يستهين بذلك ، ولا ييأس منه ، فلا

يغفله . . . وبين هذا المبدأ الواقعى ، وتلك الغاية المبتغاة ، يجول بالإنسانية متدرجاً مترقياً ، يعطيها كل فرصة لهذا التكمل ، ويرشدها إليه ، ويحثها عليه ، ويغريها به .. ومن هنا يُرضِى ببدئه الواقعى الشعوب البدائية والأمم الساذجة ، حتى فى أبسط درجات الرق وأيسر منازله . ثم يرضى بغايته السامية ، المهذبين الطامحين لأكرم أوضاع الحياة وأسمد سورها ، وبتقديره واقع الأولين وحاجتهم يكتسب رضاهم وطمأنينتهم ، فينقادون له ويسايرونه حتى يصل بهم إلى أقصى ما تسمفهم عليه حالهم ، ويحتمله استمدادهم ، وتسمح به دنياهم من تهذيب وتمدين ، وجدٍ فى ذلك كله .

وبتقديره حاجة الراقين المتشوفين لحياة سماوية ، يفتح لها آفاق الأمل ، ويطرد عنهم أشباح اليأس ، ويشجعهم على موالاة الجهاد فى سبيل أمانيهم النبيلة ، فيخففون بآمالهم وأعمالهم بعض أثقال الحياة ومتاعبها ، ويحققون بجهادهم ، من رجائها وطموحها ما هى أهل له على هذه الأرض .

وهكذا لا ترى القرآن فى رياضة الحياة واقعياً محضاً فحسب ، يحيل الدنيا إلى مذبحة حول الحكام والعرض الزائل ، فيثير ضراوة الغرائز ، ويسعف جموح الشهوات ، ويترك الحياة تقف حيث هى ، من التمدن والأمل فى السعادة النفسية ، أو تتدهور فى مهاوى الضعة ، والنزول عن المطامح الكريمة ، كما نراها فى بعض أدوارها حين تستحكم فيها هذه الواقعية المادية ، كعهدها فى حياة الغابة .

ثم لا ترى القرآن فى رياضة الحياة مثالياً نظرياً بحتاً فقط ، بعيداً عن الواقع ، متجرداً عن المادة سماوياً لا يتصل بالأرض ، فلينفر منه الناس أو يفشلوا فى تحقيق مثاليته إذا هم حاولوها .

تلك هى خطة القرآن فى رياضة الحياة ، تلمحها جلية فى تشريعه وتقنينه حين يحل ويحرم ، ويعاقب ويؤدب ؛ وتتبينها واضحة فى تنظيم الأسرة ، حين يقرر الحقوق والواجبات وينظم الصلات والروابط ، وإنك لواجدها كذلك فى معاملاته

وقضائه وما سوى ذلك ، على أننا لا نبسط القول هنا فى هذا كله ، بل نكتفى بتتبع الخطة فى قضية السلام والقتال .

فنراه يبدأ بتنظيم الحياة المادية الفطرية العارية ، فى صورتها الشائعة الغالبة . وهنا يحمى ما فى الإنسان من رجولة وقوة وشمم وعزة ، لا ينكر عليه شيئاً من ذلك . وإلا كذبه الواقع ، وسحقت أتباعه الحياة الجارفة وهنا يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم — ٦٠ الأنفال » « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة — ١٢٣ التوبة » وما إلى هذا . على أنه حين يفعل ذلك ، لا تراه ينسى التحسن المأمول والمثل المرجو . كلا .. بل ما تركه إذا ما ذكر الإذن بالقتال ، قال إنه لدفع الظلم : « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير — ٣٩ الحج » تراه يذكر أن القتال جزاء ظلم الظالمين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين — ١٩٤ البقرة » .

وهكذا لن تراه يذكر القتل والقتال ، إلا تولاه بهذا التخفيف ، ونهى عن الظلم ، واكتفى بالمماثلة وكره الاعتداء والمعتدين ، وأمر بالتقوى ، وأعلن تأييده للمتقين ، وما إلى ذلك . فكل دعاة السلام ، الساعين إلى حل مشكلات الحياة بالوفاق ، الدافعين للظلم ، المحببين فى السلم ، الموجهين إلى معانى الوئام ، كل أولئك دعاة الفكرة القرآنية فى منع الاعتداء ومجانبة العسف ، وكراهية الظلم ، والأمر بالتقوى ، وتأييد المتقين . ولكن يا للأسف — لقد مضت ملايين السنين على الحياة الأرضية فتقدم العقل ، وقوى الفكر ، ودق الاستنباط ، وبهر الاختراع ، دون أن يتقدم القلب أو يتهذب الوجدان ، أو ترق النفس ، بنسبة ذلك أو قريب منه . فلا تزال الإنسانية عند مرتبة التدبير الابتدائى فى رياضة القرآن ، وأهل القرآن أولى الناس بأن يقال لهم صباح مساء : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة — ٦٠ الأنفال »

على أن هذا القرآن لا ييأس من الإنسانية يأساً ، بل يبسط يده لهذه البشرية المعذبة ، يواسيها ويأخذ بيدها ليريها من خلال قتام حروبها الظالمة ، نور الأمل .

وطريق الرجاء ؛ فيميل إلى السلم ويحرض عليه حتى يقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم[1] — ٦١ الأنفال » فيعلن تأييده للسلم ؛ بل حتى حين يكون هذا السلم خادعا يحب قبوله ، ويطمئن بأن الله سيق من خداعه ، فيقول : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين،وألف بين قلوبهم — ٦٢ الأنفال » وهكذا يدعو إلى السلم المثالى ، إلى السلم جميعا ، إلى السلم كله : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ـ ١٩٨ البقرة[2] » .

هكذا يروض القرآن الحياة ، وهكذا يفهم قضية السلم والقتال . هكذا يرى القرآن أن السلام غاية الحياة الخلقية ؛ وهكذا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . هكذا يعبد الطريق أمام الحياة لتخطو فيه ما تستطيع من خطا ، وإن تكن تلك الخطا وئيدة مثقلة ، قاصرة عاجزة ، فهذا القرآن دائم التذكير بتلك الغاية السامية ، وعلى الإنسانية إثمها إن ظلت بعيدة عنها ، مقصرة فى السعى إليها .

على غرار هذا التأليف بين قضيتى السلم والحرب ، تأتلف الشخصية الصالحة فى نظر القرآن ، فتكون « رجولة حازمة ، عزيزة الجانب ، موفورة القوة ، كاملة العدة ، تامة اليقظة صحيحة الشعور بما حولها من واقع الحياة ، صامدة للابتلاء ؛ على أن تحمل قلباً نقياً تقياً ، قوى الحس ، دقيق الشعور ، خيراً إنسانياً ، طامحاً لروحانية سامية ، يلقى الجاهلين بالسلام — ما استطاع — محباً للسلام ، داعياً له دعوة القرآن ، إلى دار السلام .

---

(١) قد يقول مفسرون إن هذه الآية منسوخة بكذا أو كذا — ويرحم الله الإمام الطبرى إذ يقول عنا فى ذلك : « وأما ما قاله قتادة ، ومن قال مثل قوله ، من أن هذه الآية منسوخة ، فقول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل » أهـ بلفظه .
ج ١٠ ص ٢٤ بولاق .

(٢) يفسر المفسرون السلم بالإسلام أو المصالحة ، والسياق فى الحديث عمن يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله .. الخ ، فالسلم بمعنى الصلح يظهر لى هنا قصور معناه على أن هذا العموم يفتح للاستدلال أوسع باب ، ويعطى من الصلاحية الدائمة للقرآن مثلا قوياً واضحاً .

غاية الحياة

السلم . . . والسعادة

أريد لأتحدث عن غاية الحياة فى نظر القرآن ، فالناس يسعون لتحقيق أغراض مختلفة فهذا يطلب المال يستكثره ، وذاك يطلب الجاه يوفره ، وذلك يطلب الشهرة الذائعة ، والآخر يطلب الحكم والسلطة ، وهكذا فأى هذه الغايات أحق بأن يطلب ؟ وأيها أولى بأن يسعى إليه ؟ وهل يوجد وراء هذه الغايات المختلفة غاية أخرى بعيدة ؟ وماهى إن كانت ؟ تلك أمور لابد للمتحدث فى الأخلاق من الانتهاء إلى رأى فيها ، ليعرف الطريق الصالح إليها ... فهل حدد القرآن غاية الحياة وتحدث إلى الناس عنها ؟ وماذا قال فى هذا الشأن ؟

لانشك فى أن القرآن قد تحدث عن مطامع الناس فى الدنيا ، فحمد بعضها وأباحه ، وكره بعضها وحمل عليه . حمد لهم مثلا ألا ينسوا نصيبهم من الدنيا ، أو أن ينالوا حظهم من الزينة والطيبات ؛ وكره لهم أن يقفوا عند غاية مادية محضة ، أو أن يسلكوا إليها سبيل خداع ، أو إضرار بالغير ، أو أنانية ... فعل ذلك كثيراً ، ولكن هذه كلها غايات قريبة لاتطلب لذاتها ، بل تطلب لشىء وراءها ، فهل تحدث القرآن عن الغاية الأخيرة ؟ وهل أرشد إلى غرض يمكن أن يكون آخر ما ينتهى إليه هذا الوجود الدنيوى ؟ فإنما يعنينا ذلك ، وهو مانقصده إذا ما قلنا « غاية الحياة » .

إن فهم الغاية الأخيرة للحياة ، يتصل اتصالا تاماً بالرأى فى مصير هذه الحياة ونهايتها الأخيرة . والناس فى هذا المصير مختلفون ، فمنهم من نظر إلى الوجود فى سذاجة وبساطة ، أو بعقل خاص وتفكير معين ، فرأى أن هذه الحياة لاهدف لها ، ولا غرض تتجه إليه ، وإنما هو وجود وعدم ؛ حياة وموت ، فناء وتجدد ،

تركب وتحلل ، ليس وراءه غرض ولا بعده شيء . ولعل هؤلاء هم الذين يعنيهم القرآن بمثل قوله : «وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين — ٢٩ الأنعام» « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ؛ وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون — الجاثية ٢٤ » . وقد ناقش القرآن هؤلاء الناس ، برفق وحكمة ، في مثل قوله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب العرش الكريم — المؤمنون ١١٥ . » كأنما يقول لهم: أفحسبتم أنما خلقناكم إذ خلقناكم لعباً وباطلا ، وأنكم بعد الممات لا تصيرون إلى ربكم فتجزون بما كنتم في الدنيا تعملون ، تعالى الله ...

وقد أنفت من هذا العبث ، واطمأنت إلى الحق ، عقول كثيرة منذ أول عهد الناس بالتفكير إلى اليوم؛ فكان قدماء المصريين منذ آلاف الأجيال، يديرون عملهم وعلمهم وفلسفتهم وفنهم على فكرة البعث وخدمتها ، وفي سبيلها قاموا بأعمال عظيمة وخلفوا آثاراً جليلة ؛ من أجلها بنوا وشادوا وحنطوا وصانوا ، وما إلى هذا . وقد اطمأن العقل الإنساني إلى البعث دهوراً طوالا حتى أن أحد جبابرة الفكر بأوروبا يقرر في القرن الثامن عشر[1] ، أن من المسلمات الضرورية للحياة الخلقية ، أن يكون هناك وجود باق إلى ما لا نهاية ، يستطيع الإنسان فيه ، أن يصل إلى الكمال والقدسية أكثر فأكثر مما هو في هذه الحياة الدنيا . بل يستطيع الإنسان في هذا الوجود الباقي إلى ما لا نهاية ، أن يبلغ الكمال والقدسية تماماً ، ويبين ذلك قائلا : إننا نشعر بهذا الكمال ، نشعر بصوت يدعونا إلى الفضيلة ، نشعر بالحق ولا نستطيع تحقيق ذلك كله في حياتنا الدنيا هذه ، فكيف يمكن لهذا الشعور بالحق والكمال أن يعيش ، إن لم نكن نحس في أعماق نفوسنا وصميم قلوبنا أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا جزءا من الحياة ، وليست الحياة كلها . إن دنيانا هذه ناقصة ، تعلمنا كل يوم دروسا في إفلات المسيء من العقاب ، وإهمال المحسن دون ثواب ، فلن تكون هذه الدنيا هي الحياة فحسب . إن هذه الحياة الدنيوية

---

(١) هو « كانت » الفيلسوف الألماني .

ليست إلا مقدمة لميلاد آخر وبعث جـــديد ، مقدمة لحياة أخرى أطول أمداً ، وسيجزى فيها كل امرىء بما عمل أضعافاً مضاعفة(١) .

وهذا الذى اطمأن إليه الإنسان فى أدوار مختلفة ، هو الذى قرّرته الأديان وجاء به القرآن ، « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا — الاسراء ١٩ » .

فالحياة عند القرآن متصلة بحياة أخرى فيها الثواب وفيها العقاب ، والقرآن يهدى الناس إلى ما يصل هذه الحياة الأولى بالحياة الأخرى ، فلو عرفنا ما الذى يراه القرآن وصلا للحياتين ، وكيف تكون هـذه الحياة العاجلة ، حتى تصلح للاتصال بتلك الحياة الباقية ، عرفنا غاية هذه الحياة الأخيرة فى نظر القرآن .

وإنه ليتحدث دائماً عما يهدى الناس إليه ، ويدعوهم للأخذ به وتحقيقه ، حتى تتصل حياتهم فى الدنيا بحياة سعيدة فى الآخرة ، يتحدث عن ذلك على سبيل الإجمال حيناً ، وعلى سبيل التفصيل حيناً ، فمن حديثه إجمالا مثل قوله : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ـ الاسراء ٩ » ، « قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ـ الجن ١ ، ٢ » ، « يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ـ الأحقاف ـ ٣٠ » ، « يهدى الله لنوره من يشاء ـ النور ـ ٣٥ » ، « ومن يؤمن بالله يهد قلبه ـ التغابن ١١ » ، « وهو يهدى السبيل ـ الأحزاب ٤ » .

هذا وما يشبهه بيان مجمل أو عام لما يهدى إليه القرآن ، ولا نستطيع أن نحدد به غاية الحياة التى ننشدها ، وإنما يجدى فى ذلك بيانه المحدد الخاص لما يهدى إليه ، فهو الذى يراه غاية الحياة فاستمع إلى هذا البيان الخاص المحدود فى قوله : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل الســلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم — المائدة ١٥ ، ١٦ » فى هاتين الآيتين الـكريمتين ، نجد تحديد الهداية القرآنية بأنها هداية إلى سبل السلام — السلام كما نعرف ، ضد الحرب ، هو الأمان ، هو الطمأنينة . فلو قلنا : إن غاية الحياة الخلقية عند القرآن السلام ، لم نبعد ولم نتزيد .

---

(١) مقدمة سانتهلير لـكتاب أرسطو فى الأخلاق . ص ١١٧ من الترجمة العربية قصة الفلسفة الحديثة — ص ٢٠١ .

وهذا السلام هو الذى اتخذه الإسلام شعاراً إنسانياً . هذا السلام هو اسم الله الذى وضعه على الأرض ليفشيه الناس بينهم ، كما يقول أصحاب الحديث .

هذا السلام هو الذى يهتف به المسلمون ملايين المرات كل يوم مختوماً بالرحمة ، رحمة الله .

هذا السلام هو الذى يرجى أن يتم به للمؤمن بعض صفات إلهه ، الذى هو السلام ، فيظفر بالطمأنينة الروحية ، ويسلم قلبه من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر ، وتسلم جوارحه من الانتكاس والانمكاس فلا تغلبه شهوة جامحة ، ولا يتحكم فيه هوى طائش ، فيكون السلام من العباد قريباً فى وصفه من السلام المطلق ، الحق تعالى شأنه ، كما سمعنا ذلك من قول المتقدمين من العلماء ...

ثم هذا السلام هو نعيم الآخرة ، هذا السلام هو سمة الجنة التى سميت دار السلام ، والتى أسلفنا أن الله يدعو إليها ، « والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا السلام هو غاية الحياة الأخيرة فى نظر القرآن ، وهذه هى الغاية التى تصل حياتنا الدنيا بالحياة الأخرى ، فإن نستطع تحقيق شىء من هذا السلام فى حياتنا الدنيا ، قل أو كثر ، فهناك سيتهيأ لنا السلام القدسى الكامل فى دار السلام ، وهناك يشعر الإنسان بالقدسية التامة والكمال النهائى الذى لم تسعف عليه حياتنا الدنيا ، كما يقول المفكرون .

وبهذه الغاية من السلام ، ترتبط الحياتان ويتسق الوجود الإنسانى ، على نحو ما تطمح إليه المشاعر الكريمة فى الجنس البشرى .

وهذا الشعور القوى فى نفسى هو الذى دفعنى إلى الحديث عن السلام أول ما تحدثت ، ثم إلى الحديث عن الرحمة شعار الإسلام الثانى وتتمة سلامه ، وعن رياضة الإسلام للحياة رياضة تحقق شيئاً من هذا السلام على هذه الأرض

الظالمة القاسية لأنه يرى أن السلام هو غاية الغايات فى الحياة الدنيا ، وهو نعيم الجنة فى الحياة الآخرة .

إن الناس منذ عرفوا أنفسهم واتخذوا اللغات ليتفاهموا بها ، لم تسكت ألسنتهم عن ذكر السعادة ، أو ترديد هذه الكلمة السحرية المحببة ، كما لم تنته أبداً محاولتهم فى سبيل تحديدها . لقد أجمع الناس جميعاً على أن السعادة هى غرضهم الأسمى ، وهى غايتهم التى ليس وراءها غاية لحياتهم مهما اختلفت آراءهم فى السعادة ، واستفاضت أقوالهم فى بيانها ، وإن الباحثين فى الأخلاق ، ليرون منذ القدم ، حتى اليوم ، أن السعادة هى غاية كل حى ، وهدف كل حياة ومنهم من رأى أن الخير والفضيلة فيما يحقق السعادة الشخصية الفردية ، ومنهم من رأى أن الخير والفضيلة فى تحقيق السعادة العامة الشاملة لأكبر عدد ممكن . وقد جهدوا فى وضع المقاييس والموازين لتقدير الأعمال ، وما تنتجه فى سبيل تحقيق هذه السعادة التى يرونها .

وحاولوا فى سبيل الوصول إلى هذه الضوابط ، وتصحيح تلك التقديرات محاولات هائلة ؛ خلفت من الأبحاث فى هذه السعادة ميراثاً حافلا ، له خطره فى تاريخ الحياة العقلية والخلقية .

فإذا كان هذا شأن السعادة ، وكانت هى بالإجماع ، غاية الناس جميعاً ، فما لى أزعم اليوم ، أن غاية الحياة الخلقية عند القرآن ، إنما هى السلام ! وأن هدف الناس جميعاً فى تقدير القرآن ، إنما هو الأمان والاطمئنان ؟ وهل يتحدث القرآن فى ذلك عن غير هذه الطبيعة الإنسانية التى تبتغى السعادة دائماً ؟ وأين هذا السلام فى هدوئه الصامت واطمئنانه الوديع ، من السعادة التى يحلم بها الناس كافة ؟ قبل أن أجيب عن هذا السؤال ، أحدثكم أولا ببعض ما قال المتفننون بالسعادة عن تلك السعادة ، فالذين يرون الخير والفضيلة فى تحقيق السعادة الفردية الشخصية فقط ، يقول زعيمهم[1] منذ بضعة وعشرين قرناً : « إنما أبتغى من

(١) هو ابيقور .

السعادة واللذة سعادة سلبية ، ولذة تخلص الجسم من الآلام والاضطرابات الروحية . والرجل السعيد عندى هو من تهيأ له جسم صحيح وروح مطمئنة ! » . فهو لا يبتغى إلا الأمان والاطمئنان ، لا التمتع المسرف والتلذذ الحاد الأهوج ؛ والرجل السعيد عنده هو الذى يصل إلى اطمئنان الروح بعد صحة الجسم .

ثم استمعوا بعد هذا إلى صاحب المنطق ، والمعلم الأول ، يقول منذ حوالى بضعة وعشرين قرناً أيضاً : « إن السعادة تنحصر فى الراحة والطمأنينة ؛ المرء لا يشتغل إلا للوصول إلى الفراغ ، فإنما تقام الحرب للوصول إلى السلام ! »[1] .

ثم هؤلاء المحدثون بعد ذلك يصلون فى السعادة العامة إلى معان زاهدة متجردة ، ويثبتون أنهم لن يبتغوا بالسعادة ذلك الإمتاع الحسى القوى ، أو الإرواء الشهوى العنيف ، ومحال أن يروا ذلك ، لأن هذا لن ينتهى إلا إلى الشقاء الحتم ، والبؤس العام ؛ فهل ترون أن السعادة التى يبتغيها الناس جميعاً شيئاً غير الأمان والاطمئنان ؟ إن هذه السعادة ليست « السلام » الذى يعبر عنه القرآن حين يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم — المائدة : ١٥ » .

إن المتحدثين عن السعادة قد عبروا عن غرضهم حيناً بالسعادة ، وحيناً باللذة ، وحيناً بالمنفعة ؛ وكل أولئك الكلمات ، قد اضطرب عند السامعين مدلولها ، واشتبهت بما هو شر وضر ؛ اشتبهت السعادة بالتمتع الإيجابى ، والإحراز والاجتلاب . وجهد الباحثون فى تحديدها وإبعاد تلك الشرور عن معناها . واشتبهت اللذة ، بهذا الانهماك الجسدى المسرف والإغراق الحيوانى المادى ، فى طلب ما يحرض الشهوة ويثير الرغبة ، وعيب بذلك أصحاب الرأى فيها وقبحوا ، رغم ما كشفوا عن أغراضهم ، وشرحوا من مقاصدهم .

---

(١) أرسطو ، فى كتاب الأخلاق إلى نيقوماخس ج ٢ : ٢٥٥ من الترجمة العربية .

واشتبهت المنفعة بالموصولية غير الكريمة ، والابتغاء المادى المنحط ، حتى لحق أصحاب الرأى فيها بعض ما لحق أصحاب فكرة اللذة ، رغم جهادهم فى إنقاذ كرامتهم وتحديد أغراضهم .

وكأن هؤلاء جميعا فى بيان ما يريدون ، وشرح ما يرتأون ، إنما ينتهون إلى المعنى المتبادر القريب لكلمة « السلام » التى تشمل كل ما قاله الباحثون فى السعادة الإنسانية على اختلاف الأدهار . وكأنما كانت كلمة « السعادة » وما ماثلها من الكلمات ، تعبيراً خاطئاً مشوهاً عن غاية الحياة الخلقية ، حين كانت كلمة « السلام » التعبير الدقيق المحقق لما يريده المفكرون من غاية الحياة ، وعن السعادة فى الحياة .

أتذكرون إذ تختمون صلاتكم بالسلام ، فتهتفون بعدها فورا داعين : « اللهم أنت السلام ومنك السلام » ؟ إنكم لتهتفون بما هو والله أمنية الحياة ، وغاية الوجود ، وإن يهبكم الله السلام ، هذا السلام منه ، وتظفروا بهذا السلام النفسى ، والدعة الروحية ، والطمأنينة القلبية ، فقد آتاكم الله بذلك السلام خيراً كثيراً ، وحقق لكم أكبر سعادة أرضية ، وهيأكم بذلك للسلام الأعظم ، والأمان الأكمل ، والقدسية الكبرى فى دار السلام ، التى يدعو إليها ذو الجلال والإكرام .

هذا الذى تهتفون به مراراً كل يوم ، وأنتم فى خشوع العابدين ، هو طلبة الإسلام للإنسانية ، قد حققها فى عقائده وعباداته وأخلاقه ومعاملاته ، كما تؤيد ذلك آيات القرآن .

تمثلوا ما تقولون فى هذا الهتاف ، وفى غيره مما تذكرون من أمر السلام واعملوا على تحقيقه فى أنفسكم وقومكم .

السلام النفسي

الفضيلة ... والخير

حين يرتعد الناس فرقاً من هول الحرب ، يمسون منها على خطر ، ويصبحون على وجل يفزعون إلى البحث عن السلام ، لكننا لا نيأس من روح الله ، ونطمع أن يرد الخيرون على نفوسهم عازب اطمئنانها وشارد سلامها ، فيلقون تلك الحياة فى شىء من الهدوء ، إن لم يدفعوها إلى أثارة من سلام .

لقد اطمأن بنا الرأى إلى أن السلام غاية هذه الدنيا فى نظر الإسلام ، ورأينا أن السعادة التى تمناها الناس فى كل زمان ومكان ، ليست عند المفكرين فيهم إلا السلام ، ولقد أدركنا أن لفظ السعادة وما إليه من ألفاظ اللذة أو المنفعة ونحوها ، كأنها التعبير الخاطىء عن غاية الحياة ، وكأنما التعبير الدقيق عن ذلك إنما هو لفظ السلام .

وقد أحست العربية هذا اللفظ إحساساً شاعراً عميقاً قوياً ، وأحسه الإسلام فى القرآن إحساساً دقيقاً إنسانياً ، فأحسن الدعوة إليه ، ووصل به ما بين الحياتين ؛ الدنيا والأخرى .

وإن هذا السلام ليشمل سلام الفرد فى نفسه وكيانه الخاص ، كما يشمل سلام الأسرة فى أشخاصها المعدودين ، وعلاقتهم القريبة ، كما ينتظم سلام الأمة الواحدة ، تميزها الخصائص المشتركة ، وإنه ليمتد كذلك حتى يشمل الجنس البشرى كله فى روابطه العليا ، وصلاته السامية ، رغم الفوارق والفواصل والحواجز ، التى تخفى هذه الشركة وتوهن هذه الصلة .

ولعل القرآن قد تناول هذا السلام على اختلاف ألوانه بالعناية والبيان ،

وفى أسباب مختلفة من العقائد تارة ومن العبادات طورا ، وفى المعاملات والأخلاق حيناً . ودفع الحياة فى هذا السبيل الكريم ، وقد تتناول تلك الألوان المختلفة بالبيان الوافى إن شاء الله ، ونتحدث الآن عن : السلام النفسى ، سلام الفرد الخاص .

ولقد عرفنا أن السلام هو الانتهاء إلى الطمأنينة ، والوصول إلى الاتزان والهدوء ، فسلام الفرد أن تطمئن نفسه ، وتهدأ روحه ، ويأمن قلبه ، فيخلص من الانفعال المندفع،من الرغبة الجامحة ، من الهوى المسيطر ، من الحقد المتحكم ، من الغيظ القاهر ، من الخوف المزعج ، من الحزن الساحق ؛ ومن الاضطراب فى أى معنى من معانيه . هذا هو السلام النفسى الذى يجعله القرآن صفة عباد الله الصالحين فى قوله : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى — الفجر : ٢٧ — ٣٠ » يقدم على ذلك ردع النفس المضطربة فى قوله : « كلا ، بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين،وتأكلون التراث أكلا لما،وتحبون المال حباً جماً ـ الفجر: ١٨»وتلك هى العاصفات بكل سلام . ويعقب على ذلك بمصيرها الردىء وعذابها المرير ، منذ يبدأ قوله : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ـ الفجر:٢١،»وبعد الانتهاء من هذا الرعب المفزع، يرق وتفيض رحماته، وينادى من الإنسان أكرم ما فيه : « يا أيتها النفس المطمئنة » بذكر الله ، وبالأخلاق الفاضلة ،والعقائد الصحيحة .. يا أيتها النفس التى اتبعت الرضوان فهديت سبل السلام ... « ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى » الذين هم أهل هذا السلام والاطمئنان ... « وادخلى جنتى » دار السلام . وهكذا يستقيم حديث القرآن عن السلام ، ويلتقى بعيده بقريبه ، ويحدث أفضل الحديث عن السلام النفسى ، واطمئنان القلوب .

لقد بحث العقل الإنسانى ، آلاف السنين ، عن حقيقة الخير ، وانتهى فى ذلك إلى آراء كثيرة ، ولكن تلك الآراء جميعاً تلتقى وتتفق عند تقرير : أن الخير هو ما حقق السلام النفسى أولا ؛ لأن هذا السلام هو ما لابد منه

فى تحقيق كل خير آخر . ولو عرضتم صنوف اللذائذ التى فى الدنيا كلها ، لما وجدتم أحداً يرغب فى شىء إلا بقدر ما يأمل فيه من سلامة النفس . ولا أحداً ينفر من شىء إلا بقدر ما فيه من جور على هذا السلام . وعند هذا تلتقى أعمال الناس جميعاً مهما تضادت واختلفت : الكريم المتلاف يبذر تحقيقاً لسلام نفسه لا غير ، والبخيل المقتر يضن ويبخل تحقيقا لسلام نفسه ؛ الشجاع الجرىء يقدم ويضحى تحقيقاً لسلام نفسه ، والجبان الرعديد يحجم ويهن تحقيقاً لسلام نفسه . الصادق الأمين يصدق ويفى رغبة فى السلام النفسى ، والكاذب الأفاك يختلق ويفترى وصولا إلى سلامه النفسى . وما فى الأمر إلا أن أحدهما يخطىء التقدير وينسى العاقبة فلا يصيب شيئاً من هذا السلام ، على حين يصح تقدير الآخر ويدق نظره فينتهى إلى ما يبتغى من السلام ، ويختم جهاده بالراحة والاطمئنان ، ويوفى به حربه على السلام .

ولقد وضع العقل الإنسانى كثيراً من المقاييس التى تقدر بها الأعمال ، ويحكم بها على صلاحها وفسادها ، وليس بين هذه المقاييس والموازين مقياس أضبط ولا أنبل من نفس فطرية بارئة من المصطنع الزائف المفسد ، قد ظفرت بالسلام فدق تقديرها وصح حكمها ، وأمكن أن يقال لصاحبها : استفت قلبك ، وارقب ما حاك فى صدرك ، واتبع طبيعتك وعد ما حقق سلام هذه النفس خيرا ، وماجار عليه شرا » . وما جهاد الأديان جميعاً ، ولا كفاح المربين على اختلاف مذاهبهم وتجاربهم ، ولا رياضة المتصوفين على تنوع طرائقهم ، إلا سعياً إلى إكساب الناس هذا الطهر النفسى ، وهذا الهدوء النفسى ، وهذا السلام النفسى ، ليحتكموا إلى ضمائرهم ويطمئنوا الى تقدير أنفسهم ، ويكونوا من الأخيار المرجين ، والأبرار الخالدين .

لو تركنا البحث العقلى فى الخير ومقاييسه ، ونظرنا إلى الحياة الواقعة ، عريانة مجردة ، لوجدنا هذا السلام النفسى كافياً لضبط نظامها ، وتسيير شئونها ، مهما احتكمنا إلى نفوس مريضة أو خبيثة ، ما دام حساب النتائج صحيحاً دقيقاً .

افرضوا مجرما فاسد النفس ، يحب الإجرام ويتشهى الدم ، وامنحوه مع ذلك صحة تقدير ، ودقة حساب لآثار أعماله على نفسه هذه ، ثم اتركوه يستفتي هذه النفس الخبيثة ويستشيرها ، فسيدرك من قرب شرية الرذائل والجرائم ، وهدمها السلامه النفسي الذي لا يطلب غيره من أى فعل يفعله . سيجد فى الإجرام إرضاء لشهوته الجارفة ، ويحقق بذلك شيئاً من هدوء نفسه ، ولكنه يجد مع ذلك أن الإجرام من حيث هو عبث وتدمير ، يتطلب أعمالا عنيفة شاذة ، ثم تتطلب آثاره إخفاء وتعمية ، تحتاج إلى أعمال عنيفة شاذة ، حتى يختفى ويضلل ولا يقع تحت طائلة العقاب ، إن لاحقه القانون والعدل فى مجتمع منتظم ، أو يختفى فلا يتعرض لهول الانتقام الثائر فى جماعة فطرية لا تحتكم إلى قانون منظم ، فهو من ذلك وما يشبهه فى حرب نفسية أطول وأهول وأشق ، من لحظات هدوئه بالجريمة ولذته فيها . وتضطرد دائماً نتيجة هذه المعادلة الحسابية واضحة صارخة بأن ما يفقد المجرم من سلامه النفسى ، أضعاف أضعاف ما ينال من ذلك بشره ، ولكنه نسيان العاقبة ، وخطأ الحساب . والأمر كذلك دائماً فى الجرائم العنيفة والجرائم الخفيفة العنف على السواء ، فالحقود والحاسد والساعى بالشر وأمثالهم ، فى حرب نفسية دائمة وعذاب داخلى يزيد كثيراً على ما يلقى ضحاياهم من آلامه ، ويوفى ما يستحقون هم من عقاب . ولو دققت لرثيت لحال أصحاب الشرور دائماً ، لأنهم يلقون من عذابها وإقلاقها ، واحتراق نفوسهم بها ، ما تستلزمه دائماً طبيعة الشر والجريمة ، ولن ينفك عنها حتى حين يخمد الضمير ، ويموت الوزاع النفسى ، وما زلت أكتفى بهذا العذاب الشخصى للحاقدين والحاسدين ، والساعين بالشر ، فما هم إلا أشخاص أخطأ حسابهم ، يظنون الربح من جانب ، على حين هم يخسرون أضعاف هذا الربح من جانب آخر ! .

وحياة الفرد العملية ، كحياته الجسمية ، فليس نجاح فرد وظفره فى أعماله ، إلا أثر السلام فى نفسه ، وما هزيمته وفشله ، إلا نتيجة لفقدان هذا السلام . صاحب النفس المطمئنة يلقى الحوادث ويواجه الصعاب فى هدوء يحسن معه التقدير والتدبير ، وتواتى الحلول الموفقة ، رغم كل مفاجأة . وصاحب النفس المضطربة ،

يلقى ذلك فى اضطراب وارتباك ، فيخطىء وجه الرأى وهو واضح ، ويضل طريق الصواب وهو قريب . وليس وراء ذلك إلا الهزيمة والخسارة ، فالانسحاب من ميدان العمل ، وأحياناً من ميدان الحياة كلها ؛ صغار الأعمال وكبارها فى ذلك سواء ؛ نجاحها فى الظفر بالسلام النفسى ، وخيبتها فى فقدان هذا السلام ؟ خوف التلميذ فى الامتحان وتلعثمه ، فقدان للسلام النفسى ، وثباته ودقته أثر للسلام النفسى ؛ كثبات المحارب وإقدامه ، أثراً لسلام نفسه ، وجبنه وتراجعه فقداناً للسلام ، دأب الباحث أو المجرب وصبره سلام نفسى ، ومله وقلقه نقص فى هذا السلام .

لو تركنا صلة السلام النفسى ببحث الخير ، وتقدير الأعمال ، وتنظيم الاجتماع ، ونظرنا إلى أثر هذا الهدوء الروحى والسلام النفسى فى حياتنا الجسمية ، وانتظام الصحة ، لوجدنا أن هـذا الاضطراب النفسى يسبب أمراضاً خطرة لا تـكون إلا منه ، أو ليس لها سبب أقوى منه . ولوجدنا السلام النفسى يغلب أمراضا خطرة ، ويشفى حالات مستعصية . وكلنا يعرف أثر الوهم فى المرض ، وتدخل الحالة النفسية فى العلاج . وكلنا يستطيع تجربة ذلك فى نفسه ، إن لم تـكن قد سبقت له فيه تجربة وملاحظة ، فالسلام النفسى ملاك الحياة الجسمية ، كما هو قوام الحياة الخلقية ، وسر نجاح الحياة الفردية ، ومنظم الحياة الاجتماعية .

يذكرنى الحديث عن السلام النفسى ، بمحاولة غريبة فى هذا السبيل ، قرأت خبرها منذ حين ، وهى أنه فى سبيل عـــــلاج الانتحار الذى لا يدفع إليه إلا الاضطراب النفسى ، أنشأ جماعة من النفسيين ، والفنيين الغربيين ، مدرسة لمقاومة الانتحار بطريق الابتسام الإجبـارى ، ترغم تلامذتها على أن يبتسموا مكرهين ، فلا يزالون كذلك حتى يبتسموا طبيعياً عن رضاء وارتياح . ولدفعهم إلى الابتسام الإجبارى ، يصنعون لهم نماذج شمعية تشبه الفم المبتسم ، توضع على فمهم مربوطة . وتترك ساعات أو أياما ، حتى إذا ما رفعت وجد الشخص أن فمه تعود الابتسام . أو توضع أمام التلامذة صور لأناس ضاحكين ، لتضع فى ذهنهم صورة الضحك ، فيسرى فى شعورهم وتفـكيرهم فهذا وما إليه ليس إلا محاولة

سطحية فى سبيل اكتساب السلام النفسى من خارج النفس ، وما هو إلا حالة داخلية خفية . وسواء أنجحت أمثال هذه المحاولات أم فشلت ، فإن الأقرب منها إلى النجاح ، والأضمن فى الوصول ، ما كان تأثيره قلبياً داخلياً ، وهو ما يفيضه الإيمان على النفوس ، وما يريح به القلوب ؛ وهو ما يمنحه اليقين من طمأنينة وثقة بالمستقبل ، وركون إلى العدالة الشاملة ، والحكمة المدبرة ، والقدرة المنظمة .

لقد تولى القرآن الإنسانية بالتدبير النفسى ، والعلاج الروحى الذى يكسبها السلام الداخلى ، ويهديها سبله ، وسنرى ما يحقق تدبيره ، ورياضته من ألوان السلام المختلفة ؛ فردية وجماعية، بعد ما رأينا اتجاهه إلى السلام ، ذلك الاتجاه القوى .

على أننا لن ننسى دائما أن هتافه الدائم بالسلام ، تركيز نفسى قوى ، وترسيخ متجدد لمعنى السلام ، وتلقين بعده الإيمان ، فيكون أفعل من القوالب الشمعية والصور الضاحكة ، فى تغيير قالب الأفواه . فإذا ألقى إليكم السلام وأنتم غاضبون فهذا حدٌّ للغضب ، وإذا ألقى إليكم السلام وأنتم قلقون فليكن روحاً وطمأنينة .

القرآن وسلام النفس

ثقة ... وطمأنينة

بلغ بنا القول إلى أن غاية الحياة الفاضلة الخيرة فى نظر القرآن هى السلام ، وإنما يتصل مابين حياتنا الدنيا هذه وحياتنا الأخرى بهذا السلام ، فهو النعيم الأبدى ، الدائم الكامل ، الذى يلقاه الصالحون فى حياة الخلود التى مقرها دار السلام . فالخير الكامل ، والفضيلة الشاملة ، هى ماحقق هذه الغاية ، والنفس الطيبة الخيّرة ، هى التى ظفرت بالنصيب الكامل من هذا الهدوء ، وغمرها ذلك الاطمئنان . ومتى تم لها ذلك ، وسع صاحبها أن ينزل عند مشورتها ، ويصدر فى عمله عن فتوى ضميره الداخلى ، وحكم وجدانه الباطنى ، لأنه لا يخطىء ، ولن يخطىء فى إدراك الخير، وتقدير الخير .

وفهمنا أن هذا السلام ، يشمل سلام الفرد ، وسلام الجماعة الصغرى وهى الأسرة ، وسلام الجماعة الكبرى، وهى الأمة كما يرتقى إلى سلام جماعة الجماعات وهى الإنسانية ، على ماتشمل من أمم مختلفة الألسنة والألوان .

ولقد أدركنا أن سلام الفرد وهو الذى دعوناه السلام النفسى ، له الأثر أكبر الأثر فى حياة الفرد الجسمية الصحية ، وحياته العملية المادية ، وحياته المعنوية العقلية . ورأينا القرآن يقدر له هذا الأثر حينما ينادى النفس المطمئنة ، ويؤهلها بهذا الاطمئنان لدخول الجنة ، ويصفها بأنها راضية مرضية ، راضية مبتهجة بما توافر لها من هذا السلام ، أو سعيدة كما نحب أن نقول ، ومرضية يطمأن إليها ، ويوثق بميلها ، ويرضى حكمها ؛ وتحسب فى السعداء الظافرين .

ولقد عرفنا حرص الناس على الوصول إلى هذا السلام النفسى ، وسعيهم إلى الفوز به ، حتى اتخذوا المحاولات المختلفة لتوفيره على المحرومين منه . بطبع ملامحهم

على السرور ، وافراثهم بالتفاؤل ؛ وأخذهم بالابتسام ، وإن كان ذلك وما يشبهه سطحياً خارجياً . فهل أعد القرآن وسائل لهذا السلام النفسى ؟ وهل أخذ الفرد بتدبير يهيىء له هذا الهدوء الروحى ؟ وما هى هذه الوسائل ؟ وماذاك التدبير ؟ -

فى الحق أن من يرى السلام غاية الحياة ، لا بد له أن يدبر للحياة ما ينتهى بها إلى هذه الغاية . وأول ما نراه متصلا بهذا فى آيات القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب — الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون — هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة — فمن يؤمن بربه لا يخاف بخساً ولا رهقا . ومن يؤمن بالله يهد قلبه — الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور — قد أفلح المؤمنون — وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »

هذا الإيمان ، واليقين القلبى ، هو تدبير القرآن لإكساب السلام النفسى - ودون أن ندخل فى غوامض علم النفس ، وخفايا أحوالها ، ندرك أن الإيمان معرفة وثقة واستقرار ، على حين أن الجحود والشك ، جهل وظلام واضطراب . والنفس تنفر من هـذا وتشقى به وتألم له ، بقدر ما تتطلب الأول ، وتحن له وتجنح إليه . هذا الإنسان طلمة ، متشوق للمعرفة ، محب لتبين الحقائق ، وذلك الكون هائل عظيم ، يجري على نواميس دقيقة باهرة ، وتلك الحياة لغز مستغلق شديد الخفاء بقدر ما هو بديع . ففيم كل هذا ؟ من أين بدأ ، ومتى بدأ ؟ لماذا كل هذا ؟ وما الغاية ؟ وأين المستقر ؟ وما المصير ؟ كل أولئك الأسئلة وأشباهها شغلت الإنسان ، واشتاق إلى جوابها ، سعياً إلى سلام نفسه ، وجهها إلى عقله ، كما وجهها إلى الآخرين ، وجهها إلى الأحياء والأشياء ، وجهها إلى الشمس المشرقة والقمر المنير . إلى الليل الرهيب والنهار العامل . إلى الموت المختطف المفزع ، والميلاد الصارخ المبهج . إلى المحيط الخضم الصاخب ، والنهر الوديع اللاعب . إلى الجبل الأشم ، والسهل الفسيح ، إلى الأسد الفاتك فى القفر المهلك ، والحوت

السابح فى المغاص العميق ... وإلى غير ذلك وغيره سائلا : مم ؟ وفيم ؟ وإلام ؟ وحتام هذا ؟

تفلسف الإنسان مفكراً فإذا الفلسفة تنتهى به يوما عند المادة ، فتتشعب بها المسالك : وتضطرب الآراء ، وتتناقض المذاهب . وتتعدد حتى ما يبقى قول لم ترده . وإذا الإنسان أشد حيرة مما بدأ ، لم يهتد ولم يطمئن ... تتقدم الفلسفة خطوة أخرى فتسقط ؛ تنكر المعرفة ولا تجد إليها سبيلا ، تتهم الحس والعقل فإذا الحياة حرب هوجاء ، ونضال مجنون لامغزى له . وإذا الإنسان حائر لا مخلص له ، لم يهتد ولم يطمئن .

تمضى الفلسفة قدما ، تثبت وتبنى ، تتعرف الإنسان نفسه ، وتطمئن منه إلى عقل وفهم ، فتحدثه عن آفاق من السناء ، وعوالم من الخير ، وحقائق وراء هذا الكون ، وكمال تستشرف له النفس ، فتؤله الفلسفة ، وتتحدث عن الغيب ، وتفيض على النفس أشعة طمأنينة مسعفة ، وتنشقها نسيم راحة مستروحة ، فى ظل دوحة روحية فينانة ، على حافة غدير نورانى ... سلاما ، سلاما ..

ولكن إلام يدوم هذا ؟ إنه قصير العمر ، فما تلبث الفلسفة أن تضطرب رواكينها ، وتهيج شياطينها ، فتعود سيرتها الأولى ، وتدور فى حلقتها المفرغة مادية ، ثم سفسطة ، ثم حيرة . ولا تمد الفلسفة الإنسان بسلام دائم ، بل تخون الذين أفنوا أعمارهم فيها ، حتى يقول قائلهم حين تبلغ روحه التراقى : « اللهم إيمانا كإيمان العجائز ! » .

والعلم ... العلم الجرىء ، القوى ، ينير بما يكشف ، ويهتدى بما يجرب ، فيرفع من الحجب ظلما وظلمات ، ويطمع فى النجم ، ويدبر لجوب السماء ، ويمد لرحلة القمر ، ولكنه يعلن أولا ودائما ، أنه إنما يعرف الخصائص ، ويفحص الظواهر فأما الكنه والحقيقة ، أما ماوراء هذا كله ، أما نهاية هذا كله فلا ... فأين منه سلام النفس وطمأنينتها ؟ ! فى هذا القلق المستحوذ ، لا تجدى السرعة الطائرة فى لحظات ، ولا تنفع الإشارات العابرة للأرض فى ثوان . ولا خير فى الحديد

الذائب ، والشعاع الخاطف ؛ ليس فى شىء من ذلك سلام النفس ، إن لم يكن كل ذلك مادة جحيمها .

وإذ ذاك ... يبقى للإيمان مكانه ، يتحدث الوحى إلى النفس لا غير ، تعنى الرسالة بهذا السلام لا غير ؛ يعرض الدين حلا لمشكلات الكون ، مريحاً متسقاً مطرداً ، تاركا للعقل كل محاولاته ؛ يسلم الدنيا لعدالة شاملة . يكفلها بحكمة إلهية كاملة ، ويسعدها بمصير خير فى دار سلام . ويتحدث عن ذلك كله إذ يقول عن نفسه : « ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ » هنا تعود النفس إلى ظل الدوحة الروحية الفينانة ، على حافة غدير النور ، فى روض الخير ، لا تروعها فيه شياطين ، ولا تميده تحتها براكين ما آمنت ... هنا تدفع النفس حاجتها الملحة إلى الإيمان .. هنا تلوذ من الثقة بشاطىء أمين ، هنا ما يصفه القرآن من حاجة إلى الإيمان ، تجد كلما اضطرب السفين ، وكشفت الأحداث أستار الغرور كما يقول القرآن : «وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه — وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعداً ، أو قائما» واحد الناس فى ذلك وكثرتهم سواء : « وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه »

إذا كان السلام النفسى هو القوة المعنوية التى لا قيمة لقوة مادية إلا إذا اعتمدت عليها واعتزت بها ، فلا مثل الإيمان مصدراً لهذه القوة المعنوية ، تفيض طمأنينته على النفس ثباتا واتزانا ، يكبح جماح الهوى ، ويوازن القوى ، ويمنح أطيب الهدوء الروحى ...

إذا كان سلام النفس هو الثقة التى ترتد إليها كل توفيق ، ويعتمد عليها كل نجاح ، فلا مثل الإيمان يوفر الثقة والأمل ، يعتمد صاحبه على نظام مطرد ، ويستند إلى عدالة شاملة ، فيثق بنصر موعود ، ونجاح أكيد قد أيقن بوعد العزيز الحكيم « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » لا يشك فى أن ينتصر الحق وتغلب الفضيلة ، وتهوى

الرذيلة آخراً ، فلا تزعزعه الطوارىء ، ولا تربكه المفاجآت . فهى ثقة لا تعدلها ثقة بالنفس مهما تطرفت ، ولا تقاربها طمأنينة مهما قويت واستمكنت . ثقة رزينة ممتزة . قد وضعت صاحبها فوق الأحداث والأشياء ، فما يوهنه خذلان ، ولا يستخفه نصر ، إذ يردد من قول القرآن : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم — والله لا يحب كل مختال فخور ـ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون » ذلك معدن العظمة ولبابها ، وسر النجاح ومحوره .

إذا كانت الحياة الخلقية المحققة للسلام المنشود ، إنما تقوم على الشعور الأدبى، وتؤسس على المسئولية النفسية ، والمحاسبة الشخصية ، من ضمير حى ، فلا مثل الإيمان الدينى إحياء للضمير ، وتنقية للسريرة ، وأخذا بذلك التقدير الوجدانى ، وإخضاعا لرقابة معنوية خفية : «أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين — يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور — يعلم السر والنجوى » أليس القرآن يقول : « قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير »

كما يقول : « إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فهل وراء ذلك مراقبة أنبل من مراقبة المؤمن ؟ وهل يستطيع نظام ما ، رقابة أدق من هذه الرقابة وأقوى ؟ وهل أفضل فى سلام النفس من ذلك الشعور المؤمن ؟ وهل تكون نفس راضية مرضية إلا يوم يتم لها من هذا الشعور أكمله وأفضله ؟ تلك هى النفس المطمئنة .

إذا كان سلام النفس نعيم هذه الحياة ومصدر قوتها وسر نجاحها ، وليس شىء يفسد هذا السلام أو يهدمه إلا أحداث الدهر وصروف الأيام ، ولم نستطع حتى اليوم أن نحتكم فيها ، وما إخالنا مستطيعين غداً ولا بعد غد ، أن نخط مستقبلنا ، ونتخير جميع ظروفنا ، وندير الدنيا على ما نحب ونهوى . إذا كان

الأمر كذلك ، فلن نلق تقلبات الأيام ومفاجآت الليالى ، بشىء أفضل ولا أفعل من الإيمان الدينى الراضى ، والرضا النفسى المؤمن ، المطمئن إلى مثل الآيات الكريمة : «لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون »

ما أنس لا أنس من ينفض رأسه ويزوى عينيه ، ويهتف بى محتجاً : حسبك اقصد ولا تسرف ! اذكر ما للإيمان الدينى وما عليه : لاتنس أن الإنسانية قد لقيت أشد الكرب ، وعانت أهول الخطوب من جراءهذا الإيمان الدينى اخاضت الدم خوضاً فى الحروب الدينية التى قتلت الناس ، وخربت الدنيا قرونا وأجيالا . وسجل التاريخ قديماً وحديثاً شرقا وغربا ، حافل بتلك الصفحات الدامية الرهيبة ؛ كرعت الإنسانية الدم كرعاً فى المذابح الدينية المتعصبة ، يقتل فيها فريق فريقا ، وتستحل شيعة دم شيعة ، ويذبح مذهب مذهباً ، إذ يرى الإيمان الدينى أن الحياة حقه وحده ، وأن الحق عنده وحده ، وأن الكون لا يتسع لغيره معه ، فيندفع فى حدة هوجاء ، وعصبية عمياء ، يعصف وينسف ، ويفتك ويذبح ...

نعم لن أنسى أن ذلك قد كان ، وأنه قد اقترف باسم الإيمان ، ولكن رويدك ، فاستمع معنى الإيمان الدينى فى نظر القرآن ؛ اصغ إليه يصف إيمانه فى مثل قوله : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون ؛ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » بل اسمعه يحدث عن وحدة الدين فى قوله: «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » هكذا يدعو إلى الإيمان بالرسل والرسالات

قاطبة . ويأمر رسوله أن يقول ذلك : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » . والمؤمنون يؤمنون بذلك فعلا ، ويؤمرون بأن يقولوه . ويدعوا إليه أيضا : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق، فسيكفيكهم الله » .

ثم انتبه إلى القرآن يبعد رسوله عن الفرقة والمفرقين فى مثل قوله : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ، إنما أمرهم إلى الله » . ليس ذلك فحسب ، بل يعد التفريق هو الكفر الحق فيقول : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما ».

ويعد القرآن هذا التفريق من عمل المشركين ، إذ يقول : « ولا تكونوا من المشركين ؛ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » .

هذا ما ينشده القرآن ، إيمان يستل الضغينة ، إيمان يفيض السكينة ، إيمان يفيض السلام ! ولكن الحياة الخاطئة ، والبغى الجائر ، يقتل نفسه وغيره ! وإن القرآن ليحمل الإنسانية الظالمة نفسها ، إثم هذا التفرق والاختلاف فى مثل قوله : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه

إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات، بغياً بينهم » . وقوله « وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم » فويل لنا من أنفسنا ! .

هذا بعض تدبير القرآن الاعتقادى ، لتوفير سلامكم النفسى وأمنكم الروحى . هذا بعض ما يرمز له الهتاف الدائم بالسلام ، فأشعروه قلوبكم ، برّا بكم ورأفة بإنسانيتكم ، وتخفيفاً لمتاعبكم .

سلامة الروح

بين الخوف .. والأمن

ليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . .

إن هذا الدين ديوان الفضيلة ، والطراز المالى للحياة ، وما هو فى الحقيقة إلا محاولة إصلاحية كبرى ، لتنظيم روابط الجماعة الإنسانية ، وتنسيق للنفس البشرية فى صور وجودها المختلفة ، من وجود فردى مستقل ، ووجود جماعى شامل ، على اختلاف أحوال الجماعات التى يندمج المرء فيها .

وما هذا الدين إلا طب معنوى للنفوس ، كذلك الطب العملى للأجسام وللأجهزة والأعضاء،حتى يستمر اتساقها ويستقر نظامها . وتحتفظ بتمادلها التام، فيكون كل شىء منها بقدره ، وعند حده ، لا يفتر فيها نشاط ، ولا يصل النشاط إلى حد الإسراف ، فإذا خالف شىء من ذلك دستوره ، عادله الطب المادى بما يصلحه ويوازنه،وبهذا تتحقق سلامة الجسم . وعلى مثال هذا يطب الدين للغرائز والقوى النفسية . المودعة فى الكيان الإنسانى . المسيرةللوجود البشرى ، ليطرد تمادلها ويثبت نظامها ، فتتحقق بهذا سلامة الروح كسلامة الجسم . وعلى هذا التدبير للغرائز والقوى النفسية ، يجرى هدى القرآن . ويجرى الحديث فيه عن سلامة الروح ...

ألا إن فى الإنسان غريزة فطرية ، إذا ماواتتها التربية الصالحة ، كانت تلك الغريزة مصدر خير ونفع للانسان ، ومبعث أعمال تقيه الخطر ، وتجنبه الضرر ، وتحمى وجوده وحضارته . وإذا مالاقت تربية سيئة لا تسلم معها الروح ، كانت مصدر شقاء وضر ، ومبعث نقائص تخزى الإنسان ، وتعرض وجوده للدمار ، وتكتب عليه الهزيمة والخذلان . تلك الغريزة هى فيما يقول قوم من النفسيين

غريزة الخوف . أو هي – كما يقول قوم منهم – غريزة الهرب من الخطر التي يلازمها الخوف . وفي كل حال هما قريبتان ، ولعل من لطف الحس اللغوي ، في لغتنا ، أنها استعملت الرهب بمعنى الخوف . وقالت : الهرب والرهب ، وما هما إلا وصفان مختلفان لحروف متحدة . هذه الغريزة إذا ما اعتدلت كانت من أقوى المؤثرات في حياة الانسان ، بل في وجود الأحياء كلها ، راقية ومنحطة ، إذ تحمل على صيانة الوجود ، واتقاء ما يضر ، وتدعو إلى التفكير في وسائل النجاة ، والاحتياط لمنع الخطر ، فتنتهي إلى ضرب من الحزم في التصرف .

هذه الغريزة ، تثير نشاط الأجهزة الجسمية للعمل ، وتعينها على القيام بمجهودات قوية لا تستطيعها في العادة . ثم من هذه الغريزة يتحقق للروح السليمة لون من الشعور الخلقي ، هو الخوف الأدبي ، الذي يدفع إلى كراهية الرذيلة واتقائها . وعلى هذا الخوف الأدبي يعتمد أصحاب الأخلاق في ترقية الحياة ، وتنمية الشعور الخلقي . وكذلك يهتم بها رجال الدين ، وأصحاب الرياضة الصوفية ، والصالحون في سلوكهم التقي ، ومن هنا يكثر كلامهم في خوف الله وخشيته ، ويتحدثون عن «الخوف والرجاء» فيما يعقدون من أبحاث خلقية دينية تصوفية .

هذا الخوف الغريزي ، النافع باعتداله ، هو مايعنيه الناس حين يقولون : من خاف سلم ! وهذا الخوف الأدبي المصلح ، هو ما يريده القرآن في مثل قوله : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى » . وقوله : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » . لكن هذه الفائدة المادية والأدبية ، وهذا الخير في الجسم والروح ، ينقلب شراً ذريعاً إذا ماجاوزت الغريزة اعتدالها فكانت إلى ذعر ورعب ، أو صارت وجلا وجزعا ، حينئذاك ينال الجسم منها شر الآثار وأضرها ، كما ينال الروح أخطر التأثير ، وأفتكه بقوتها ونبلها .

فأما في الجسم فإن لهذا الذعر آثاراً ، أعيذكم أن تتذكروها أو تشهدوها ، وإنه ليؤذي العقل نفسه إيذاءً خطراً ؛ إذ يفسد الأعصاب ، ويترك أمراضاً عصبية يصعب التخلص منها ، ويحدث بلاء وحزنا يفسد كل راحة وهناءة .

وحسبكم أن القرآن قد جعل الأمن من هذا الخوف نعمة ، امتنّ بها حين امتنّ على قريش بالرزق والإطعام ، إذ يقول : « فليعبدوا رب هـذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . كما يجعل القرآن نفى الخوف والحزن جزاء وحده على التقوى والعمل الصالح، فيقول : « فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون » ويعد نفى الخوف والحزن جزءاً متمماً للأجر والجزاء فى مثل قوله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وإذ يكتفى فى الحديث من الجنة أحياناً بنفى الخوف من أهلها فى قوله : « ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون » ويجعل نفى الخوف والحزن حظأوليائه وأحبائه : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » .

إنّ الخوف المضطرب باعث وضيع ، ودافع منحط ، حتى لقـــد كره الصوفية ، فى الخوف الـكريم ، خوف الله تعالى ، أن يكون متجاوزاً الحد . فـكان من قولهم : إن الخوف بالحقيقة نقصان ، لأن منشأه العجز والجهل فهو محمود بالإضافة لا فى ذاته ، وإنما المحمود فى نفسه وذاته ، هو العلم والقدرة ، وكل ما يجوز وصف الله تعالى به ، ومالا يجوز وصف الله به فليس بكمال فى ذاته . فالخوف الذى يصل إلى القنوط مذموم ، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة ، وزوال العقل . وقد يخرج إلى الموت ، وكل ذلك مذموم .

وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى . وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل . فـكل مايقدح فى هـذه الأسباب فهو مذموم . وأفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله ، فكل ماأبطل العمر أو العقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان »[1] .

فإذا ما كانت مجاوزة الحـــد فى الخوف من الله تعالى خسراناً ونقصاناً ،

---

(١) الغزالى ـ إحياء علوم الدين ٤ ـ ١٣٧ ط الحلبى ـ بتصرف يسير جداً

كما ترون : فكيف بالخوف من دنيوى زائل ، أو بشرى محدود ؟ ! وإذا كان الخوف،عن شعور كريم،خسرانا ونقصانا حين يزيد ، فكيف بالخوف عن وهم واضطراب نفسى وجزع مستعجل ؟

فى مواقف التاريخ الفاصلة ، ومواطن التحول الكبير فى سير الدنيا ، عند ماتنهض حضارة وتسقط حضارة، يقوم صراع حاسم تغالب فيه إرادة إرادة وتنازع عزيمة عزيمة ، هنالك تكون هذه الغريزة من أخطر المؤثرات الفعالة فى كسب النصر وإحراز الظفر ، إذ تصمد قلوب مؤمنة واثقة ، وتضطرب قلوب يلقى فيها الرعب ويتولاها الفزع ، فتزيغ الأبصار ، وتعمى البصائر ، وتشرد الحواس، ويضطرب التقدير بفعل الخوف ، — فتكون الهزيمة والخذلان ، وإنكم لتجدون شواهد ذلك كثيرة وافرة . ففى سير الفتوح الإسلامية الأولى ، قد انتصرت جيوش الفاتحين مرة تلو مرة ، فسمت بالنصر نفوسهم ، وسادت روح الظفر جو حياتهم ، على حين تولى أعداءهم الرعب ، وهز قلوبهم الفزع ، فرأوا فى تلك الجيوش المسلمة ـ وهى عادية ـ قوة خارقة ، وأيقنوا بفعل الخوف أنها ـ وهى آدمية ـ فوق الناس ، ومن غير البشر ، ففى مصر كان جيش المسلمين قليل العدد يسير العدة محصوراً بالماء ، مقطوع المدد قد فصلته عن قواعده فياف رهيبة؛ومع ذلك قال عنهم المقوقس حين وصفوا له : «والذى يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، ولن يقوى على قتالهم أحد ! »

ثم هاهم أولاء الفرس، أصحاب الدولة القديمة والنظام الراسخ،والجيش المنظم، والعدة الوافرة ، ومع ذلك كله فعل الخوف بقلوبهم فعله فى قتالهم البدو السذج، الذين ألف الفرس السيطرة عليهم ، وعرفوا من ضعفهم ماعرفوا فنى إحدى المعارك معهم لجأ أحد قواد الفرس ، إلى أن يقيم خلف جيشه رجلا من ثقاته فى فرقة من الجند ، وأمرهم أن يقتلوا الهاربين من المعركة ، فأقبل ضابط فارسى عظيم يريد الهرب ، فأراد الموكل بالمنع قتله فقال له : لا تقتلنى فإنا نقاتل قوما منصورين ؛ الله معهم . ووضع حجراً فرماه بسهمه ففلق سهمه الحجر ، فقال لصاحبه : أترى هذا السهم الذى فلق الحجر ؛ إنه ليصيب أحدهم فلا يخدشه !

وهكذا فعل الخوف فعله فتغيرت طبائع الأشياء فى نظره وفلق السهم الحجر ، لكن لم يخدش الإنسان ! ولا سبب لهذا كله إلا أثر الرعب على عقله وحواسه .

ومازلنا حتى الساعة نسمع رجال النار ومسعرى الحروب، يستغلون الفزع ويستعينون على أعدائهم ! هى هى فطرة الله فى النفس البشرية ، لا تبديل لخلق الله ! وكذلك الأمر حين يصارع فرد فرداً ، صراعا ماديا أو معنويا كذلك ، ينال خوف الخائف من نفسه أكثر مما تنال منه قوة خصمه منه ، فتحق عليه الهزيمة بشعوره وتداعى نفسه !

هذا الناموس هو ما بيّنه القرآن ، إذ يتحدث عن الرعب وفعله ، فى مثل قوله تعالى : « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ، أو قوله : « وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا » ، « وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

وهذا الناموس هو نفسه الذى يتحدث عنه الرسول عليه السلام فى مثل قوله : « نصرت بالرعب » ، فما أقوى الخوف حربا على أهله ، وخطرا .

لا يحل الرعب إلا قلوبا أقفرت من الإيمان وثقته كما قال تعالى : « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ، مالم ينزل به سلطانا » أما القلوب المؤمنة ، فلها الأمنة وسلامة الروح . « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ـ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»

وإن ضبط النفس فيما جرب المجربون ليروضها على إطراح الخوف ، والتخلص من آثاره ، والنفس المؤمنة أطوع النفوس رياضة ، وأعرفها بالثقة الإلهية .

الحيـــاة والقوة

مذهب القرآن فى القوة

إن هذا الإنسان قدعاش على الأرض آلاف الآلاف من السنين، وما تاريخ حياته هذه كلها إلا صور من الجهاد فى طلب الحياة سواء أكانت الحياة فى هذا العالم أم فى عالم ثان بعده ! فنى هذا السبيل وجهت قوى الإنسان كلها على مر الأدهار، واختلاف الأقطار ، ومن أجل الظفر بالحياة فى أفضل صورها . سخر الإنسان تجاربه ومعارفه حينما كانت أولية ساذجة ، كما سخر مداركه ومعلوماته الراقية المستنيرة.ومن أجل هذه الغاية كانت علومه على اختلافها ، وفنونه على تنوعها،وفلسفاته على تعددها ؛ وبهذا الأمل أطمعته أديانه وعقائده على اختلافها ، وما على الأرض من نزعة فنية ، أو نظرة علمية ، أو مذهب فلسفى ، أو معتقد دينى ، إلا وهو فى ذلك كله ، يبتغى الظفر بالحياة فى خير صورها وأكمل أحوالها .

والإنسان يروض نفسه بألوان من التربية والتدريب ، ليكون صالحاً للحياة، أهلالها . فالأب يأخذ ابنه بتجاربه ، ليطبعه على المثال الذى يرجوه ، وليمكن له بذلك فى الحياة . والمؤدبون على اختلاف الأزمان ، من أبسط النظم الساذجة ، إلى أدق النظم المدرسية ، يدربون النشء ، ويربون الفتيان بما يمدهم للحياة . بل ما يزال الشاب ، والرجل المكتمل ، بعد ذلك يربى أنواعا من التربية ليصلح للحياة : فالجيش يدرب الجند ، والجماعة السياسية تلزم أعضاءها نظما بعينها ، والنحلة الدينية تأخذ أهلها بالتكاليف المعينة ، والطريقة الصوفية تمد مريديها بأضرب السلوك الخاصة ، وهكذا . . . فى كل هذه التجارب وذلك التفكير وفى أنماط الرياضة والتربية ، قد اختلف الناس طرائق وشيعا، ووصلوا فى ذلك إلى التباين الكامل والتعارض الماثل ، وبدا ذلك فى أديانهم

كما بدا فى فلسفتهم وفى علمهم وفى فنونهم ، وفى نظم عيشهم . وتأثر بعض ذلك ببعض ، فكان للدين على الفلسفة فعله ، وللفلسفة فى الدين أثرها وغير ذلك مما خلفته تلك الأزمان الطوال ، والإنسان بين هذا وذاك حائر مضطرب حيناً ، أو هادىء مستسلم حيناً .

من الناس من طلب الحياة من طريق القوة الجسمية ينميها ويزيدها ، ويحتال لذلك بكل مستطاع لأن الحياة قهر ومغالبة ، والضعف عنده خسار ودمار ، وعلى الضعفاء حقت كلمة الفناء ، وهم طعمة النار . . . ومن الناس بإزاء ذلك من رأى أن هذا الجسم ليس إلا ظلا كثيفاً ، وحاجزاً ثقيلا ، يمنع شفوف الروح ونورانية النفس ، فدعا إلى إضعافه ، وعمل على التخفف من أثقاله والتخلص من أوضاره ، واحتال لذلك بما أمكنه ، لتصفو العقول والقلوب .

وفى الناس من رأى العز الحمية والإباء ، والخير فى الأنفة والكبرياء ، فأكبر الكرامة ، وآثر النار على العار ، وثار للإشارة ، وأجج الحمية فى الصدور ، وعمل لذلك بمختلف الوسائل من الموسيقى والشعر وسائر الفنون ، واتخذ الأبطال من أصحاب الحس الحاد ، والشعور الجامح .

كما أن فى الناس ، من ذهب إلى قهر النفس ، وإذلال الهوى ، وامتهان الغطرسة المتكبرة ، وأخذ نفسه بأعمال قاهرة إلى حد أن يتسول فى الطرقات والأسواق ، وكان من هؤلاء رهبان وصوفيون .

وهكذا تفرقت بالناس السبل فى البحث عن الحياة ، واختلفت مناهجهم فى تناولها ، فتفاوتت منازلهم فيها ، وتغاير نصيبهم منها ، فبات فيهم الغالب الظافر قد أتخمه الشبع ، وأثقلته البطنة ، كما بات فيهم الطاوى الجائع ، قد أعجزه الضعف ، وأعوزه الزاد ، وعز عليه اليسير .

وكنا نحن الشرقيين ، وكان شرقنا ، فى الحياة بين خفض ورفع وجذب ودفع . فماذا يرى القرآن من هذه الآراء ، وأى سبل الحياة يهدى الناس ، وأى المناهج نعده أخلاق القرآن ؟ .

فى هذا المضطرب الفكرى تأثرت الآراء الإسلامية فى الحياة ، ورأينا بعض الاتجاهات السابقة تسيطر أحياناً ، وبعضها الآخر يغلب فى أحيان أخرى ، فتوجه الحياة وجهات متعددة ، ولكننا ندع ذلك كله لنسمع كلمة القرآن خالصة من التأثر بما عداها ، قريبة المنال فى غير غموض ولا إغراب .

ولعلنا نتبين رأى القرآن فى تناول الحياة مما نسمعه من قوله فى وصف إلهه إذ يرى المحدثون أن وصف الإله إنما يكون بالمحبب من الصفات عند العبد ، كما يرى الأقدمون أن حظ العبد إنما هو التحلى بمعانى صفات الله وأسمائه ، بقدر ما يتصور فى حق العبد ، وأن عليه السعى فى اكتساب الممكن من تلك الصفات ، والتخلق بها ، والتحلى بمحاسنها ، وبذلك يصير العبد ربانياً ، أى قريباً من الرب(١) .

وإذا ما كان الأمر هكذا فى فهم القدماء والمحدثين ، فإن القرآن ليصف الله تعالى بمثل قوله : « إن القوة لله جميعا — إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين — إن الله قوى شديد العقاب » .

وإن القرآن ليردف القوة بالعزة فى مثل قوله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » . وقوله : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز » ، « إن ربك هو القوى العزيز » ، « يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » ، « وكان الله قويا عزيزا » إلى كثير من هذا .

لئن أراد من تراهم من المفسرين أن يجعلوا القوة هى القدرة ، ويجعلوا المتانة تمام القدرة(٢) ، فإن اللغة ربما لا تطمئن إلى هذا كثيراً ، ولا ترتاح إليه حين تستعمل كلماتها ، ، مقدرة دقة الفرق بينها ، وها هو ذا القرآن قد وصف الله تعالى بالقدرة حينا ، وسماه القادر ، كما وصفه بالقوة حيناً وسماه القوى ، واستعمل كل وصف فى موضعه ، وعبر معه بما يناسبه : فعبر مع القوة ضد الضعف بالغلبة والعزة والنصر ، وكل ذلك يلائم القوة خاصة .

فالإله فى وصف القرآن : قوى عزيز غالب ، له الغلبة ولرسله ، وله

---

(١) الغزالى — المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ص ١٦ ط السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) الراغب الأصفهانى المفردات مادة قوى الكشاف ٢/ ٤١٢ ط محمد مصطفى سنة ١٣٠٨ هـ.

من الأسماء ما يناسب ذلك ، فهو القهار الجبار ، والمعز والمذل ، والخافض والرافع ، وما ماثل هذا . والعبد الربانى : هو الذى يتحلى بمعانى صفات الله وأسمائه ، ويسعى لاكتساب الممكن من ذلك .

كما أدركتم رأى القرآن فى الحياة ، من وصفه الإله ، تجدونه كذلك يعد القوة نعمة ، ويقرنها بالمنن التى ينعم بها على المتقين من عباده فيقول : « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » . فزيادة قوة المستغفرين التائبين نعمة ، كإنزال الغيث وإرسال الخصب .

والقرآن كذلك يتحدث مما أمر به الأمم السابقة من النهوض لأخذ الرسالات ، وتلقى الدين بقوة فى مثل قوله : « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه » — « خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا » . « يايحيى خذ الكتاب بقوة » ، « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة »

وعلى مثال ما أحب القرآن فى تلقى الشئون الدين ، يحب تلقى الشئون كلها ، ويعظم تناولها . بل إن القرآن ليجهر بجملة رأيه فى اتخاذ القوة ، حين يأمر بإعداد ما يستطاع منها للقاء الخصم وإقرار العزة فى قوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ؛ ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

تلك جملة رأى القرآن فى طلب الحياة وتناولها ، وإن يكن للتفصيل موضع ، فمن الفطرة البشرية يستمد ، وعلى الغرائز النفسية يعتمد ، فإن هذا الإنسان ، بل الأحياء كلها ، مندفعة لحفظ ذاتها ، وفيها لذلك قوى ووسائل ، من بينها حب القهر والغلبة . فطرة الله التى فطر الناس عليها ، تدفع إلى العزلة والمنازعة ، وتثير الرغبة فى الفوز والنجاح . فلم ينكر القرآن هذا الواقع الفطرى ، ولم يعمل لقتله ، ولا كان بحيث يهمله ، إذ لو قصد إلى شىء من ذلك ، لابتغى الماء من النار ! وهدم مابقى ! ولكان كأولئك الذين فرضوا مالا تستطيع الغريزة الاستجابة له

عن إسلام النفس وإذلال الروح ، فثارت بهم الفطر ، وصدمهم الواقع .

لكن القرآن لم يترك الغريزة دون كبح قوى وتنسيق فعال ، لم يدعها هوجاء جامحة ، كما فعل أولئك الذين اتخذوا للحرب إلهاً من مختلف الأمم القديمة يقربون له القرابين ، ويسفحون على أوصاله الدماء ويبطشون — وهم يصرخون باسمه — بما حولهم ومن حولهم ممن هو دونهم قوة وبأساً ، وقد تجردوا من الرحمة ، وأساءوا استعمال العلم والعقل ، فصيروهما وسائل للفتك ، وطرائق للتفنن فى التدمير والبطش : كلا لم يفعل القرآن ذلك ، بل اسمعه يروض هذه الغريزة حين يتحدث عن القوة والعزة ، فيضع معها فى وصف الإله معانى السمو والخير وحسن التدبير . يضم إلى جانب وصفه بالعزة ، وصفه بالحكمة وهى التى تضع الأشياء فى موضعها ، وتصرف الأمور لمرام دقيقة محكمة ، فيقول : « وكان الله عزيزاً حكيما » ، « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، « ما من إله إلا الله » ، « وإن الله لهو العزيز الحكيم » .

كذلك يضم إلى جانب العزة العلم ، وهو الذى على وفقه تجرى الأشياء صحيحة سالمة طبق قوانينها ، ومضبوط نظمها ، « ذلك تقدير العزيز العليم » ، « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » .

ولا يكتفى بالحكمة والعلم ، بل يضم إلى جانب العزة المغفرة وعدم المؤاخذة على الإساءة والذنب ، فلا طيش للقوة ، ولا جموح ، ولا عزة بالبطش فحسب ، « هو العزيز الغفار » ، « هو العزيز الغفور » .

بل طالما يقرن العزة بالرحمة ، وفيض التلطف والترفق ، فيقول : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » « عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » ، « ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » وعلى مثل هذا الوصف الإلهى ، يستكمل العبد نفسه فيكون القوى العزيز ، على أن يكون فى عزته الحكيم فيما يأخذ ويدع ؛ العليم بما يفعل ويترك وأين يضع قوته ، الغافر لا يبطش بكل مسىء لفضل قوة

لا يضبطها ؛ الرحيم لا تقسى القوة قلبه ، ولا تحجز فؤاده ، ولا تصير فيه القوة آفة على الناس والدنيا ، ووباء لمن دونه قوة وحولا .

فمن للدنيا بالأقوياء الأعزاء ، الحكماء فى قوتهم . الرحماء فى عزتهم . الغافرين عن هفا . العالمين بحقائق الأكوان ، لا المدمرين المنتظم منها !؟

هذا مذهب القوة فى القرآن ، وإنه لمذهب برىء من غلو الغالين فى القوة ، المتطرفين فى عنفهم ، المسرفين فى اندفاعهم ، لا يدعون لغيرهم فى الوجود مكاناً ، وإن خطة القرآن فى الحياة الخالصة كذلك من خطر الضعف ، وعقبى الوهن ، التى ينتهى إليها تفكير النافرين من العنف ، المتهيبين للقوة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

مذهب القرآن فى القوة يرضى تفكير المفكرين ، ويجد سنده عند المادى منهم ، كما يجده عند الروحانى .

فإن تكن هذه الحياة الأرضية مادية ، تسيطر عليها الحسيات ، فقد وجب أن تخضع لقوانين تدافع المادة وتقابلها ، وترتكز على قوة من ذلك .

وإن يكن الإنسان جسما وروحا مع الجسم ، فقد جرت الحياة الأرضية على أن تقوم الروح بالجسم ، والمعنى بالمادة . وما رأينا — ولا إخالنا نرى — روحا قد تجردت تمشى على الأرض ، ولا معنى قد شخص وتمثل يسعى فى الدنيا بلا جسم ! وما دام الأمر على هذا ، فلا بد للروح من عماد جسمى ، ولا مفر للمعنويات من مقومات مادية ، ولا حيلة لروحانى ، مهما يكن شأنه ، فى أن يدبر جسمه ، ويمد لوازمه ، ويأخذ الأمر بقوة ، إلا على نحو ما تقضى نظم الكون .

وليس وراء هذا من الرأى إلا رأى نظرى لا تنهض به حياة ، ولا يستقيم لأمة ولا جماعة به شأن .

وإذا كان الشرق والإسلام قد خدعته حينا مافى ذلك خوادع ، فتملق بمادون القوة والإعداد والعزة والإرهاب ، وظن فى ذلك شيئاً من الغناء أو الكفاية ، فقد وجد بطلان ذلك فعلا ، وأيقن أنه خالف مذهب القرآن فى الحياة ، وخطته السديدة فى تدبيرها — وعليه أن يرجع إلى ما قرر القرآن من ذلك وأكده ، بعد الذى كان من تجارب مريرة وصدمات قاسية ، كشفت له عن حقيقة الحياة .

تلك نظرية القرآن فى الحياة والقوة : للأقوياء فيهـا حظهم ، وللضعفاء الصالحين للحياة فيها غناؤهم . للأقوياء ذلك الإحكام والإحسان ، حتى تمازج قوتهم الحكمة ، ويساير قوتهم العلم ، وترافق قوتهم المغفرة . وتحدو قوتهم الرحمة ، ولو فعلوا لأحسنوا إلى أنفسهم ، واستبقوا قوتهم ، كما ينصفون غيرهم ويعدلون معهم ، ولكنهم لا يصيخون . فعلى أنفسهم ما يجنون ، حتى يفيئوا إلى رشدهم إن أراد الله بهم خيراً .

ثم إن لكم — ياقوم — فى نظرية القرآن عن القوة : طريق الوجود الصحيح ، وسبيل الحياة الحقة ، لو أردتم أن تكون لكم الصفة الربانية ، من القوة والعزة ، وعملتم على أن يمن الله عليكم بنعمة القوة ، كما من عليكم بغيرها من خيرات الدنيا ، وأدركتم أن الاستغفار والتوبة ، وما يروضكم به الدين ، إنما هو سبيل القوة لا سبب الاستكانة ، وطريق العزة لامادة الضعة ، وأدرك المتحدثون بالدين فيكم ، أنه طريق الحياة الظافرة ، وخطة الخلق الناجح والوجود الكريم .

القوى الأمين

قوة ... وحكمة

« ولينصرن الله من ينصره ، إن الله قوى عزيز » .

رأينا الناس تختلف بهم السبل وتفترق الآراء ، فى طلب الحياة ، وكل يبتغيها بسبب . ورأينا القرآن يؤثر من هذه الأسباب أن تؤخذ الحياة بقوة ، فهو يصف إلـه المؤمنين بأنه القوى ، ويقول : « إن القوة لله جميعاً » . ويريد الناس أن يأخذوا بالقوة ما جاءهم من كتب ورسالات ، فهو يأمرهم بذلك كما يأمرهم بإعداد ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل ، يرهبون به عدو الله وعدوهم . وأدركنا أن هذه القوة التى آثرها القرآن ، ترجع إلى ما فى النفس البشرية من حب القهر والغلبة ، وإيثار القوة ، إجراء للحياة على أصل من الفطرة لا تستعصى معه النفس على الطاعة ، ولا تأبى ما تكلف به . ثم تبين لنا أن القرآن لا يترك غريزة حب القهر والغلبة ، هملا جامحة ، بل يروضها ويذللها ، لتخف حدتها ، وتنكسر شرتها ، فتكون بذلك سبيلا إلى حياة كريمة ، خليقة ببنى آدم الذين كرمهم ؛ فإذا قال القرآن عن الإله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز » يردف هذه العزة بالحكمة آناً ، وبالعلم حيناً ، وبالمغفرة تارة ، كما يصلها بالرحمة آونة ، فيردها إلى قوة الخيرين المتدلين ، والحكماء المتقين .

يحرص القرآن على أن يثبت لله العزة ، بمثل ما وصفه به من قوة . يقول : « إن القوة لله جميعاً » . كما يقول : « إن العزة لله جميعاً ، هو السميع العليم » « من كان يريد العزة ، فلله العزة جميعاً » . وهو يثبت لكم معشر المؤمنين ، ما يثبت لإلهكم ولرسوله من عزة ، فيقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » كما يقول : «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، إن كنتم مؤمنين » . وإنكم

لكما شاء الله لكم أبداً ، حريصون على أن يضمكم جدكم ، حيث هيأ لكم إيمانكم ، وحيث أنزلكم القرآن ، منزل العزة والكرامة .

أحسب أن القرآن فيما أسلفنا من قوله عن القوة والعزة ، إنما يتحدث عن الأمة والجماعة ، ويرسم لها الهدف النبيل ، ويبصرها بمنزلها بين الأمم ، فيبغى الأمة الخيرة قوية لا تضعف ، خير أمة ، عزيزة لا تذل ، مستعلية لا تهن ... وهذا القرآن كعادته ، إنما يصنع الجماعة الفاضلة ، من الفرد الصالح ، والوحدة الطيبة . فعنده نجد الحديث عن الفرد المبتغى ، ونعرف وجه الرأى فى وصف هذا الفرد ، وكيفية تناوله للحياة .

وحديث القرآن ، هو الحديث عن صلاح الحياة الاجتماعية ، يديره على ألوان من التعبير ، وفنون من القول ، إن تختلف صورها فقد اتحدت أهدافها وأغراضها ، سواء فى ذلك قصصه وخبره وجدله ونقاشه ، وحواره ونجواه ، أو تهذيبه وإرشاده ... كل ذلك فى سبيل خلق المجتمع الفاضل ، وتكوين «خير أمة أخرجت للناس » ، ولذا يقول فى وصف ما احتوى عليه من قصص : « نحن نقص عليك أحسن القصص » — « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب» — « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » . وفى بعض هذا القصص نسمع رأى القرآن من الفرد الذى يؤلف منه جماعته القوية العزيزة . ذلك هو قصص ابنتى شعيب مع موسى ، إذ سقى لهما غنمهما فى غلبة الرعاء من الرجال على الماء ، « فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » ... حتى إذا ما جاءت أباها ، « قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » . ففى هذا الاختيار من ابنة شعيب ، ووصفها خير الرجال ، وصف للرجل العامل الذى يكون الجماعة العزيزة . وكذلك نجد هذا الوصف بلفظه فى موضع آخر من قصص القرآن ، إذ يصف من سخره الله لسليمان عليه السلام ، ومقدرته على العمل بإخلاص ، حين ابتغى سليمان من يأتيه بعرش الملكة التى كان له معها شأن تاريخى معروف ، فقال له هذا المسخّر : « أنا آتيكَ

به قبلَ أن تقوم من مَقَامك ، وإنى عليه لَقوِىّ أمين » . وفى هاتين الصفتين ، رأى القرآن خير الرجال للعمل ، وخير الأعوان فى الخدمات .

عند هذين الوصفين ، وقف المفسرون منذ بعيد ، فكان من قولهم فى ذلك : هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة ، فى القائم بأمرك ، فقد فرغ بالك وتم مرادك ! . وهكذا أدرك الأولون ما فى هذين الوصفين من جمع لأفضل الخلال ، وعلاج لكل نقص. وما أحسن ما أخذ الفاروق عمر — رضى الله عنه — هذا المعنى فقال : « أشكو إلى الله خيانة الأمين ، وضعف القوى » . ومفسرو القرآن يردون بيان القوة والأمانة إلى ظروف القصة ، فيروون أن ابنة شعيب ، حين قالت لأبيها ما قالت ، سألها أبوها ، وما أعلمك بذلك ؟ فقالت له : « أما قوته فإنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ! وأما أمانته فإنى لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى ورائى فإنى أكره أن تصيب الريح ثيابك ، فتصف لى جسمك» . هذا ما يروى ، وهو طرف من القوة ، وجانب من الأمانة : قوة جسمية عاملة ، وأمانة ضابطة للهوى متعففة ، وذلك من خير القوة والأمانة ! لكن وراء ذلك منهما ما تُفهمه عبارة القرآن ، رغم خصوص القصة ، فالقوة أوسع من أن تكون مادية جسمية ، أو معنوية ، نفسية أو عقلية . والرسول عليه السلام قد قال ما معناه : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يغلب نفسه عند الغضب » . والأمانة كذلك أشمل من أن تكون أمانة على الشرف والعرض ، أو أمانة على المال والمادة ، أو أمانة على الواجب والمسئولية ، أو أمانة على العلم والحقيقة ، وفى القرآن شاهد ذلك وحجته ، إذ يقول : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولا » . فيعنى بالأمانة فى هذا الموضع ، جميع الأمانات ، فى الدين ، وأمانات الناس ولم يخص بها بعض الأمانات ، وكذلك يفهمها الأولون من المفسرين (الطبرى — ج ٦ ص ٤١) .

وفى الآية الكريمة ، تمثيل بعيد المرمى ، نبيل الإشارة ، لما تميز به الإنسان

من كرامة معنوية ، جملته يضطلع بما لا تحتمله موجَدات أخرى ، مهما ضخمت وعظمت ، كالسموات والأرض والجبال ، فالإنسان قد عرضت عليه الأمانة عرضاً ، ولم تفرض عليه فرضاً ، فأهَّله استعداده لأن يكون رقيباً على نفسه ، محاسباً لروحه ، مؤتمناً على ذلك ائتماناً ، حين سُيرت الموجودات الكبرى من سموات وأرض وجبال ، تسييراً ، وأخضعت إخضاعاً : والإنسان الذى رأى لنفسه ما ليس للسموات والأرض والجبال ، إذا ما عاد فجهل شأنه العظيم ، ولم يؤد الأمانة ، فيعيش معنوى الوجود ، ساهى الكيان ، فهو الظلوم لنفسه ، المجهول بقدره .

فالأمانة عند القرآن ، أعظم وأنبل ما فى الإنسان من استعداد للمسئولية ، وهى أعم وأشمل من أمانة على عِرض أو على مال أو على غيرهما . والقوى بأبعد معانى القوة نفساً ، وعقلا ، وجسما ، والأمين بأخطر معانى الأمانة ، وأكمل استعداد للمسئولية ، هو القوى الأمين الذى يشير إليه القرآن . ورجل القرآن الذى يحقق القوة الجامعة ، ويمثل العزة التى يجمُل مثلُها لله ولرسوله ، هو الرجل الذى يبغى منه القرآن أمة هى خير ما أخرج للناس ، وأفضل ما تقل الأرض . وفى وصف القوة والأمانة ، كفاء ذلك كله .

فيأيها المتحدثون فى الدين ، المنتسبون إليه ! ألستم قبل كل أحد ، دعاة القوة الأمينة ؟ أليس فيكم يلتمس القوى الأمين ، الذى يصدع بالحق ، لا يخشى فيه لومة لائم ، ويؤم الناس إلى كبريات المكارم ، ويقدُم الخلق إلى سبيل الله الذى اشترى من المؤمنين أنفسهم ! وأموالهم ، بأن لهم الجنة ؟ وأهل الدين هم الذين يسبقون الصفوف ، لا يخشون الحتوف ، ولا يعزون إلا بعزة الله ، فإن العزة لله جميعاً . وما بكم اليوم إيثار الوهن طيبة ؛ ولا اعتداد الضعف بركة ، ولا اعتبار المرض سبيل الفتوح وعلامة التوفيق ، وما لكم اليوم تقومون من الحياة فى زاوية ميتة ، وزقاق مغلق ، لا تصلون منه ولا توصلون ؟ أو يقنعكم من ذلك مطالب يقضى ، وحاجة تكفى ؟ فإن

القوة لله جميعاً ، وإن العزة لله جميعاً ، فلن يكون الضعف ولا الذلة ، للمؤمنين بالله القوى العزيز .

أصحاب السيف !

وأنتم معاقل القوة ، ومواضع المنعة ، ليس يكفيكم قيام عسكرى معتدل ، ولا سمت جندى خلاب ، ولا استجابة لأمر إذا ألقى ، وطاعة لحكم يصدر ؛ إنما يرجى فيكم القوى الأمين ، يعد أمته ليوم الروع ، فيفرغ لسد ثغورها ، ويعنى بتحصين جوانبها ، يدبر لذلك فى سلم محتاطاً لبعيد الحرب ومحتملها ، واقفاً على ذلك جده وهزله ، وإقامته ورحيله ، فإذا المناحى بينكم موزعة الدراسة ، قد تفرد كل بناحية ، يعرف سرها ، ويتكشف مخبوءها ، ويطالع الأمم من حولها ، مستنبئاً مما عندهم ، مقداراً لما يحتمل من كيدهم ، متجدد التفكير ، مسايراً للتقدم . ولو لم يكلف من ذلك برسمى ، ويندب لمهم حكومى فإذا ماجد الجد ، كان الغناء فى خبرتكم ، والكفاية فى حسن بلائكم ، لا فيما ألقى إليكم من ذلك تكلفاً فحسب ! وذلك هو حق الأمانة ، والوفاء الصحيح بالواجب ، وهكذا تفعل الأمم القوية من حولكم فاعتبروا يا أولى الأبصار !

يا رجال العلم !

وبالعلم يصل الإنسان ما قصر ، ويتم ما نقص ، به استطال الإنسان وتكمل ، فضاعف مقدرته ، وضخم قوته ، فعندكم — يارجال العلم — ترجو أوطانكم إتمام الناقص ، وإكمال القوة ، ومضاعفة القدرة — والقوى الأمين فيكم ، من حقق لها ذلك بعلمه ، فصرف درسه إلى استغلال ما وهبت أمته من مصادر القوة ومنابع الثروة ، والتمس لها من ذلك ، الخفى الدفين ، لا تقنعه عبارات مرددة ، ولا تجارب مصغرة ، ولا تقرير ما قال الناس ، وسجله من قبل الباحثون ، بل يصير ذلك

مادة لحياة قومه ، وأداة لإنهاضهم وإكرامهم ، فيركز بذلك قوتهم ، ويثبت عظمتهم .

ويا أهل الفنون :

إنما القوى الأمين فيكم ، من أدرك حرمة فنه ، وعرف فى الحياة موقعه ، ولم يصير الفن لهواً عابثاً ، ولم يرده خنوثة خانعة ! بل تولاه إحياء واستنهاضاً ، وتفهماً للوجود وتفسيراً ، وبعثه دعوة إلى الملا ، وهتافاً بالعزة ، مدركاً فى دقة مكان قومه فى الناس ، وحاجتهم فى الوجود ، وموضع الرياضة والعناية من أمرهم ، مؤمناً بحقهم فى الحياة ، شاعراً بما لهم من كرامة ؛ وكل ما ليس كذلك من فنكم فهو ضعة وضعف ، وتحيف للقوة ، وخيانة للأمانة ؟ . . . وقيت الأمم شر المتحللين فيكم ، والعابثين منكم . . . أولئك الذين يرون الفن نهباً من المتعة ، ولوناً من الشهوة ، واستباحة للجمال ، وهدماً لما استقر من شئون وأصول ؛ فما فنهم إلا مادة الخور ، وسبيل الذلة ، وعصارة ما فى البشرية من قذر وأدناس ، فلا كان ذلك الفن ، ولا كان . . !

ويا ابنة الشرق !

هذه أختك قد وصفت فى القصة رجل أحلامها ، ومثال آمالها ، حين قالت لأبيها : « يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين » . ومنذ الزمن الأول قيل : إن الكلام ، أجمل فى مدح النساء للرجال ، من المدح الخاص ؛ وأبقى للحشمة ، وخصوصاً إن كانت فهمت غرض أبيها أن يزوجها منه .

وأنت يا ابنتى بالفطرة البريئة ، تؤثرين القوى الأمين ، فعلى هذا تخيرى رجلك ، لتذودى الشبان عن الخطأ فى فهم الرجولة ، وتجنبيهم نواحى ضعف ورخاوة ، ظنوها سبيلا إلى التقرب من نفسك !

أيتها القلوب المؤمنة !

إنما يصلح آخر هذه الأمة ، بما صلح به أولها ، سنة الله لا تتبدل ، ونواميس السكون لا تتغير ، فلو مثل الشرق رجلا يشكو آفته ، لشخصتها عبارة الفاروق القديمة : « اللهم إني أشكو إليك ضعف القوى ، وخيانة الأمين ! » فلعل فيما نشهد اليوم من قسوة الحياة ، مايصهر النفوس فينقيها ، فلا يكون في الشرق إلا القوى الأمين !

وما أحكم أن تقترن دعوة السلم بالقوة !

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

القسم الثانى

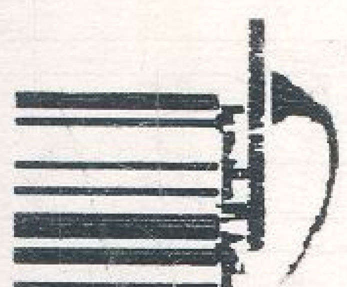
[تم بحمد الله طبع كتاب « الجندية والسلم » بمطبعة الرسالة
وذلك فى يوم السبت ١٧ ربيع الثانى سنة ١٣٨٠ الموافق (٨ أكتوبر
سنة ١٩٦٠) والحمد لله أولا وآخراً]

عبد الحميد علي حسين
مدير مطبعة الرسالة

خطأ وصــــواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
ه	١٦	والفرد	الفرد
ي	٣	غامض	غض
«	٤	نمت	تمت
«	١١	المماليك	الممالك
«	١٨	إثر	أثراً
«	٢٠	الدولة	الدول
١	٢١	نحو	نحو أحد
٣	١	ولكنه	ولكن
«	١١	القوم	لقوم
٨	١٥	ورياضته	ورياضة
١٣	١٩	أم كلمات	أو
١٥	٢١	يامنصور ايت	يامنصورأمت
١٩	٧	شجاعة	قضاعة
«	١٤	متفوقون	متفرقون
«	١٦	الحبشية	الجنسية
٢٤	٣	استقوها	اشتقوها
٢٥	١٣	نور العين	نور الدين
«	١٧	بعد الكلمة التاسعة توضع رقم ٣	
«	١٩	بحذف رقم (٣)	
٢٧	١٨	فيها تارة	فيها السهام، تارة
٤٧	١٣	صغر	صفر
٤٩	٢٢	كأصلها	كأهلها
٥٢	٧	والقادرون	والقوم
٦١	١٨	خرجت	خربت
٦٦	٦	من	أو
«	١٤	للأبياض	للأقباض
٧٥	٢٠	التي يستغني	لايستغني
٧٦	٩	تؤتى	يؤتى
٧٧	٧	تنقل الكلمات الست الأولى من السطر إلى ما بعد الكلمات الأربع من السطر الثامن	
٧٧	٨	تنقل الكلمة الأولى منه إلى أول السطر السابع	
«	١٠	تعرض	تعرف
٧٨	٦	أثنيا	اثنيا
٧٩	١٥	أتيها	أتنا
٨٠	١٨	وهنا	وأماهنا
٨٢	١٢	أغز	أغر
٨٣	١	معقد	مقعد
٨٣	١٢	الأدوية	الأودية
٨٥	٢١	وأقرمايش	وإقريطش
٨٦	١٥	تاشقين	تاشفين
٨٧	٤	ليبثتوا	ليبتنو
٨٨	٦	تضع	تصنم
٨٩	١	المريتي	المريني
٩٢	٣	ر ٤٠ راميا	و٤٠ راميا
٩٢	٧	أنواع لطاف صغار	أنواعا لطافا صغارا
٩٤	١٦	أخرى	وأخرى
٩٥	١٥	للنجارة	للتجارة
٩٦	٢	كالرواض	كالرواشن
«	٦	الرواش	الرواشن
«	١٥	طريقا	طريفا
٩٩	١٢	الشنداوات	الشذاوات
«	١٣	ولعل ما	ولعل من ذلك ما
١٠١	٤	أنسى	أنس
١٠٢	٣	أ كان	كان
١٠٣	١٤	بعض الليل	بعض في الليل
١٠٤	٧	السير	البر
١٠٥	٨	صنف	صف
١٠٦	٢	والرضعاء	والوصفاء

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١١٣	١٩	المحدَثون	المحدِّثون
١١٥	٥	بقلبه	بقلب
١١٨	١٧	للحياة	بالحياة
«	٢٢	الاسلام	السلام
١١٩	١٨	وإذ	وإذا
١٢٠	٢	الهية	السهية
١٢٠	١٤	يسمى	سمى
١٢٣	١٨	مريم	زمر
١٢٥	٩	لتلحق	لتحلق
١٢٧	٣	آى الكريم	آى القرآن الكريم
١٣١	١٤	الحكام	الحطام
«	١٩	فلينفر	فينفر
١٣٢	٩	بل ما ترك	بل تراه
١٣٩	١٣	ليست السلام	ليست إلا السلام
١٤٧	١١	وداخلى	وادخلى
١٤٣	١	الذى	التى
١٤٤	١٨	الوزاع	الوازع
١٥٣	١١	الحق	حقا
١٥٦	١٦	الصلح	المصلح
١٥٩	٥	كذلك	أيضا
١٥٩	٦	تنال منه قوة	تنال قوة
١٦١	٩	ونواريثه	ونواريته
١٦١	١١	الحمية	فى الحمية
١٦٣	١٣	الشئون	شئون
«	٢٢	العزلة	العزة
١٦٥	١٩	الاعلى	على
١٧٠	١	موجدات	موجودات
١٧١	١٠	مقدارا	مقدرا
١٧٧	٨	المهمات	المهماز



الثمن ٣٢ م